عبدالواحد عرجوني



برج جناذة

رواية

عبد الواحد عرجوني

برج جنادة

روايـــة

برج جناذة

تأليف

عبدالواحد عرجوني

رقم الإيداع القانوني: 2013 MO 2500

الترقيم الدولي:5-1-9392-9954-978

الطبعة الأولى: 1434هـ/ 2013م



مكتبة الطالب/ وجدة

إلى ياسر

اِعلم – حفظك الله – أن العين أدمعتها والقلب أدميته والبال ألهيته وشغلته منذ عهدتك في المهد، وها أنت تصير رجلا كامل الرجولة ... وأقدر أنك صرت إلى تقدير المسائل أقرب، وتدبر الوقائع -عاجلها وآجلها- أبلى أحسب.. وها أنت تقصف دماغي قصف إعصار دكاك، وما لي من مطلبك بعد ذا الاعتراب من فكاك، وتصر إصرار مالك اليقين على أن أهدي لك قولا يقع منك موقع الاحتكاك.

وإجبارا لخاطرك خوفا من الانكسار، أخط هذا الكتاب راجيا أن يقع منه عندك نعم المسقط، وينال من رضاك ما ينشده والد لولده.

اســتــهـــلال

"وأنت تنظر إلى الجزر الثلاث من جهة برج "لال جناذة"، أو تطل عليها

من أعلىٰ "ثمزوخث"، أو تثم ركضا من "ثيخوباي"

إلىٰ "العابد" ورائحة عرعار

"مولاي إدريس" يطاردك،

فإنك لا ترىٰ إلا

النـــار

تتقد؛ تصفر وتحمر، إن مع كل شروق أم مع كل غروب . من الشرق

يأتيها الزعفران نثيثا، ومن الغرب تهب عليها الغرْبة،

فتتراءىٰ لك مسربلة في اليتم، وقبة

"سيذي إبراهيم"[1] قائمة

شاهدة إلىٰ ما شاء

الـلـــه"

---

[1]- ضريح ولي صالح يقع في الطريق الرابطة بين قرية أركمان ورأس الماء أو البرج، ترجمته عند البادسي، واسمه الذي عرف به هو إبراهيم البطال".

"ولا تكن داعية خرف أو نسابة أهواء غيرك لنفسك* ولا تنسب لها فطنة أوعقلا إلا بمقدار ما آنست من نفسك على أن تأتي بما كان أجمل وأرشق * وإن عجزت أو صرت إلى غير ما أرادت نفسك* فتيقن من سلوكك السبيل الأقرب إلى هلاك سعادتك* وجفاف بال أخلائك من خُلوس الخواطر* وارضَ بما أزفته إليك قريحتك العجفاء* ولا تقل أطيل وأنت تقصر* ولا أقصر وأنت تطيل* فإن السكينة سالكة إليك سبيلها لا محالة* وإن جفلت منك المخيلة* وحاد منك التوهم إلى سوى مرساة النباهة التي رغبت* فلربما درج بك تيار جارف إلى نقيصة وفي ظنك هي الكمال كله* وإن تنغصت نفسك بما أثقل عليها من معتاد وغير معتاد* فالق به عاريا خالصا من دون تزاويق ولا زخارف*تجد طريقك إلى نفسك وإلى نفوس غيرك* وذلك غاية قصدك ومتم السبل إلى مراد طالما راودك* واجعل كلامك - رحمك الله- يضحك المحزون ولا يصل به إلى غايته* ويزيد المهموم ضعف همه* فلا يزيل عنه كرب يومه أو أمسه ولو ساعة حتى يدخل في تصوره حقيقة التوهم* فيحسبه هو الحقيقة بالتمام والكمال* ويختلط عليه الأمر* فيضرب الأخماس في الأسداس على أن ما لم يسمعه سمعه* وما لم يسبق له رؤيته هو كل ما رآه* أمدك الله بالصحة والعافية والسلام*"

القول الفصل الرئيس في ما سيأتي

من إفك وتدليس

قال: كان على الرجل، عفوا، على الخنفس أو الخنفس الآدمي أو الآدمي الخنفس، أن يكف عن التهرب شتى المهارب، والتسرب عبر سقط المخلوقات، حتى يدعي الهبل، أو يحكم به عليه. كانت حيلته تلك معروفة مفضوحة، وتعلاته أوهى من منسج عنكبوت، وما كان يزيد مشكلته إلا بلة، وتفجيج الفجاج، ورسم الأخاديد الغطيسة في واديه الذي هو من غير ذي زرع ولا بكور. كان يحاول أن يركن بنا إلى زوايا غميقة، وكنا نبغي تقميش مألوف عواديه وغير مألوفها، والمشبوه من ندماء مجايليه ، والثاوي في قحفه وفي عتمات أقحافهم. كان عليه أن يكف عن الدوران والمراوغة ويتجه بنا جليا توا إلى المقصد ويريحنا، ولكن بما أنه مجبول على غير الإخلاص لأهل وطنه ولآل ملته وسدنة خدامهما، والغطس والانغماس ترضية لتكرشات تفتك به بين الفينة والأخرى، وتقوسات تسبل على

بصره بظلمة أشبه بزغب عنزة، فتجعله أعمى يقذف بالأقدار على غير حساب، ويلقي بكلامه على عواهنه، كما يقولون، فكان كأنه ضب خرج لساعته من جحره، فوجد نفسه مقذوفا بين رهط فتاك، وجوف أدمتها المسغبة لدهر بتمامه وكماله. ومحصلة القول؛ أراد المتخنفس المتضفدِع التبييض والتنصيع، فسود وزاد في التسويد إلى أن كحلها وأتى على كحولها وكلوحها، فأعدم السبيل وبوصلة الهداية. وبما أن العصا تجلب الطاعة، وتعلم الانقياد السلس لكل صاحب رأس فائرة زائغة، فقد أمسكنا بلجامه ووجهناه الوجهة التي ارتضيناها، وجعلناه يتزرد الطعم بشهية ضبع جوعته الجائحة لمتم حول، ويأتي عليه بتمامه ظانا الظنون، متخيلا التخاييل، متوهما التوهمات، ومنقادا انقياد بعير بنفسه إلى حتفه، وذاك ما كان المراد، والثاوي بين شقوق الفتوق والمسوخ، ومنادمة الأويقات على إثره، وتوليد التخرصات.

وللحقيقة نصرح بشرفنا التليد، نحن ومن نحن!، أننا تمكنا بعد تعب وكلل غوالين من تسلم قياده، وندهه إلى الوجهة المرغوبة، وذلك ببساطة؛ بسبب بسالة أجهزتنا التي تتوفر على رجال شجعان أكفاء في جميع المجالات، وشباب أشاوس قادرين على نحت المعقول -بالحديد والنار وبالقناني تغزوا

المؤخرات- في العقول، بل ومتمكنين من جميع اللغات للتفاهم مع من يفكر في تنغيص هناء مواطنينا السعداء، والعبث بأمن مملكتنا السعيدة وأمانها، والمس من جهة أخرى بمصالحنا العليا التي هي من مصالح هذا الشعب المسالم المكافح الخدوم القدوم الودود الولود.

وبهذا استطعنا إعادة العاق إلى رشده، أي إلى إنسانيته وآدميته بعد بعض تنقيحات وتحويلات، لتعلموا، وليكون عبرة لغيره -وإنا لقادرون على أكثره- فقلنا يا آدميا تخنفس فتخنفس، ويا خنفسيا عد إلى آدميتك فعاد، ويا آدميا تضفدع فتضفدع، وكذلك نفعل بالمفلسين الضالين، إلا من تاب وحسنت توبته، وكان من الصالحين، اللهم احشرنا في زمرتهم، آمين..آمين.. آمين.

ذكر خبر البداية

- تذكرت..نعم. تذكرت .

- ماذا تذكرت؟

- منذ زمن وأنا أمسي لأقول أصبح، وأصبح لأقول أمسي. وبين الإمساء والإصباح والله أضيع. أضيع!

- كيف ضعت؟ وماذا ضيعت؟

- بعد ما حدث من اختفاء صديقي الذي ستعرف خبره في ما سيأتي، فكرت في تحويل حكايته إلى مشروع كتابة..أخذت ورقة وكتبت .. قلت هذه بداية .. هذه هي البداية. لا أتذكر ماذا كتبت. ثم بعد شهر أو أقل أو أكثر. نسيت كل شيء. أضعت الورقة وضعت. قررت مرة أخرى أن أبدأ، وبدأت كما أبدأ الآن . قلت أحفظ الورقة في مكان آمن. أضعها بين الجلد والعظم، وضاع الجلد وانفرط العظم وأصابه التسوس. ضاعت الورقة،

وضاعت البداية. قلت بحزم بعد أيام تخمين وتفكير، سأخطط هذه المرة قبل البداية. اِبتعت كناشا ضخما، وبدأت بالتصميم. هكذا؛ على الصفحة الأولى وضعت تصميما أوليا. وعلى الصفحة الثانية وضعت تصميما للتصميم الأول. على الصفحة الثالثة تصميما أكثر تصميما للتصميم السابق. أنهيت وريقات الكناش، ولم أتفق وخاطري، على أي تصميم. قررت أن أبدأ من جديد، بعناد أكثر هذه المرة، وبعزم أقوى وأشد. وبدون تصميم، بسملت وحمدلت وحوقلت وصليت على المصطفى وعلى آله وصحبه أزكى الصلوات، واستسلمت. أنهيت الكناش وابتعت آخر لأصحح ما ورد في السابق، وتكاثرت الكنانيش؛ اللاحق يقوم السابق ويصححه، وينقح وقائعه وشخوصه إلى أن امتلأ البيت بالكنانيش، وأنا لم أنته إلى شيء، فوقع ما وقع بيني وبين أهلي، الذين اتفقوا على خرفي، وخروجي عن طوري، فطردت شر طردة، بعد أن كنت أستقبل في الرواح بالزغاريد والقبل وبأصناف غير مصنفة من العناق.

تنكست عن الكتابة. قلت: ما لي وما لهذا الأمر وقد أودى بي إلى ما أنا عليه من غبن وتشرد؟ وأصررت على عدم العود، إلى حين ورودي إلى زاوية من زوايا هذا الربض المبارك،

حيث أقمت على الطوى. فوقع بعد مدة من حوادث ذلك الزمان، أن هاجمت نفسي تلك الأفكار السوداء. قلت: لماذا لا أحاول وقد أضعت ما أضعت لأجل هذا الأمر وأبدأ من جديد. فربما كان في ذلك شفائي مما ينغص علي المقام في الصباح والعشي من داء ينخر أحشائي.

- وهل يبدأ الأمر بهذه الطريقة؟
- وما شأنك؟
- إن ترددك ناتج عن جبنك.
- هذا خلق الله. واحسبه ما تشاء. ربما إن تأملت رأيت عجبا عجابا.
- المهم. ماذا حدث بعد أن ...؟
- رغبت في تكوين مقاولة.
- أو تستدعي بدايتك تلك كل هذا؟
- أنت أيها الأخ الكريم لم تفهم الأمر جيدا. في الحقيقة أنا في حاجة إلى مساعدين. شركاء إن شئت. شركاء فاعلين.
- أستطيع، إن رغبت، أن أكون شريكا فاعلا.
- ربما تستطيع ذلك، لكن. هل عرفت بمشروعي؟

• ألم تقل بأنك تريد أن تكون مقاولة أو شيئا من هذا القبيل؟

• نعم مقاولة من نوع خاص. أحتاج لمؤلف وسارد ومسرود له وشخصيات.

• ألم تقل بأن مشروع كتابك يتعلق باختفاء صديق؟

• يا أخي أومن بتقسيم العمل. ألا تعرف بأن تقسيم العمل يؤدي إلى ..أريد تضامنا من نوع خاص...

• إذا قبلت، أعمل معك أو عندك حتى خماسا مثلا، أو رباعا، أو حتى بالنصف إن رأيت ذلك، وأقبل بجميع الأدوار، فقد سئمت طول القعود، في هذه الزاوية.

• عفوا. هل يمكنني التدخل؟

قال شخص اقتعد الحصى قبالتنا من دون استئذان، وكأنه كان يتابع حديثنا من البداية.

• ومن أنت وما شأنك؟

• أنا عابر سبيل. أبحث عن عمل، وقد سمعت أحدكم يبحث عن مساعدين أو عمالا.

• تفضل. لكن لا دخل لك بمشروعنا.

• فقط...

• تفضل. دعه يتكلم. قال مخاطبي. ربما كان مفيدا لي ولك. فهو يريد عملا.

• هل تعرفان بعضكما البعض؟ قلت بارتياب.

• لا..أنا عابر سبيل. رأيتكما وسمعتكما تتحدثان عن عمل. فقلت ربما كان الفرج.. هكذا ظننت، وظن المؤمن لا يخيب.

• ولماذا تقاطعني؟

• قلت.. ربما احتجنا إليه في مشروعنا.

• أأنت لا زلت في البداية، وتتدعي الشراكة معي؟

• عفوا. هل تسمحان لي بالحديث؟

• لا أنت لا دخل لك. دعنا نتفاهم فيما بيننا أولا.

• ألا يمكن لعابر سبيل أن يدلي برأيه حول موضوع مشاع؟

• ليس هناك أي موضوع. ثم عن أي مشاع تتحدث؟

• أقصد مشروعنا. ألم تدعواني إلى المشاركة معكما في مشروع مستقبلي؟

• يا قوم! دعونا نتفق أولا عن موضوع للحديث.

• ها أنت تضيع "رأس الخيط". ألم أقل لك. إنك في حاجة إلى مساعدة؟

• من فضلك، أنت تتكلم عن المحارم، وأنا أتحدث عن مشروع، لا يمكن أن نتفق.

• ليكن ما تشاءان. المهم عندي أن أعمل .

• اِخفض صوتك.

• هل تشتغلان في الممنوعات؟

• لا. فقط. أريد أن أقول اِخفض صوتك حتى لا يأتي شخص آخر ويدعي الشراكة معنا بدوره.

• هذا الرجل يرغب في العمل مياوما. ما رأيك؟

• لنخطط أولا. لنعرف ما نريد . ثم نتفاهم عن الحصيص، ونصيب كل واحد منا.

اتفقنا أنا ومشغلي أن نكون جماعة شركاء. جماعة منسجمة، وبدأنا مناقشة طريقة العمل. اقترحت خطاطة أولية. اختلفنا منذ البداية. نصحني أحد الظرفاء باللجوء إلى القضاء. افترضت

أن المشكلة لم تصل إلى هذا الحد. لكن خبيرا محلفا، أصر على أن أكون متضررا، وطالب رفع ضرر، ومدعي ومدعى عليه، ليكون الأمر قانونيا. قال. علينا بتكوين جمعية للاستفادة من المساعدة القضائية، ومنحة مادية، وربما حصلنا على قرض أو عدة قروض من مؤسسات مالية، وهذا ما أسال لعاب الشريكين السابقين، فبدآ يحيكان الدسائس، بدءا بأن افترضا اتفاقا يدعى "ميثاق شرف"، مذيلا بتوقيعاتنا مع الإشارة إلى كونهما صاحبي المشروع، وكوني تحت تصرفهما باعتباري عاملا متطوعا.

هذا ما صرح به الطرف المدعي عبار السبل أو عابر سبيل غير المقيم، بحسب كناش الإحصاء الرسمي، فصار مقيما دائما، ما دفع رجل الإحصاء إلى رفض تدوين أي معلومات حولنا جميعا باعتبارنا حالة خارجة عن التصانيف التي وضعتها وزارات السكنى والتعمير، فتم تحويل ملفنا إلى وزارة الداخلية الخبيرة في مثل هذه الحالات وغيرها.

بابة مستهل المحنة

بعد أن كدت أنسى تلك الأحداث التي نغصت علي حياتي لسنوات، وبعد أن كاد ذلك الوجه يمحي من ذاكرتي، وتغير الحال وتبدلت الأحوال، عدت ذات غذاء، أو وقت غذاء، أو ما صادف أن كان سيكون غذاء. عدت من عمل امتهنته بعد لأي، اعترض طريقي شخص ادعى بأنه عون سلطة، ولم أفهم المراد ولا خمنت في أموره. سلمني وريقة قال إنها استدعاء، وطلب مني التوقيع على دفتر يتأبطه. وقعت حتى أتخلص من إلحاحه، وانصرف. دلفت إلى خبائي ولم يكن أهلا لسكن. دلفت وعيناي لا تفارقان الورقة التي لا زلت أحتفظ ببعض محتواها؛ استدعاء للحضور إلى المقاطعة، في أمر يهمكم، يوم. على الساعة. رميتها جانبا بغير ما اهتمام. قلت ألعن الشيطان، وأصلي، وكنت ممن لا يداومون عليها كسلا، لا غير،

خوفا من "ويل للمصلين"، و"الذين قست قلوبهم". وأنا على تلك الحال بين إقبال وإدبار، سمعت جلبة في الخارج، فخرجت ويا ليت لم أفعل.الرجل نفسه يقف أمام باب الخباء، وبجانبه عنصر من القوات العمومية، أي شخص بلباس عسكري. طلب مني الرجلان مرافقتهما على الحال التي وجداني بدون إبطاء. وبسبب خوفي من العصا التي كان يحملها صاحب البذلة، معلقة في حزامه ، أسرعت ولم أبطئ طمعا في نيل رضا أو تخفيف إن دعا إليه داع، وما تجاوز ظني ما دون ذلك أدناه أو أقصاه. فرافقتهما إلى أن بلغنا البناية المعلومة، وما حسبت مقامي بها يطول، وهما حذائي يحثاني الهرولة. طلب مني الآمر الجلوس في زاوية، إلى حين، وانصرف إلى أعماله، وبقيت تحت رحمة نظرات صاحب البذلة، وعيناه لا تفارقاني لهنيهة .

بعد نصف يوم من الانتظار، وكان مقدمي في الزمن الذي عرفتم، وقد أمسينا. خرج الرجل من باب، وكان سابق عهدي به دخل من غيره، وطلب مني مرافقته، فأسرعت، وغرضي لا يحيد عن مجمله، في التصاغر وإبداء المسكنة والانصياع والطاعة، طمعا بالفوز بتخفيف إن كان في الأمر ما يوجب التشديد، وصاحب البذلة لاصق بي مثل ظله أو يزيد. دلفنا إلى مكتب

مفروش على غير ما ألفت، فكان أن سحبت نعلي ودفعت بهما جانبا، وقبل أن أستوي من فعلتي تلك واقفا، أمسكني المبذل بالقفى، ودفعني دفعا لم أتوقعه، بعد كل ما أظهرت، إلى أن أوقفني مصلوبا إلى الجدار، وأخذ في تفتيشي بعنف لم أعهده، ولم يتركني إلا وروحي تكاد تخرج لولا تشبثي بالحياة. لست أدري كيف انهالت على ذهني صورة الفقيه البرنوصي وهو يهوي على قدمي بعصي الرمان. لم أكن أنتعل حذاء في ذهابي وإيابي إلى المسيد، فقط تلك الرتوق، كلما تذكرتها استحضرت صورة البهلواني.

• وأين وجه الشبه ؟

• في الرقاع أيها الأبله.

• ولماذا انتقلت من المكتب الذي كنت فيه إلى فقيهك البرنوصي هذا، وما العلاقة بينه، وهؤلاء؟

• ستعرف ذلك يا رأس اليقطين فيما بعد.

قلت: كان السي البرنوصي لا يرحم، وفي الحقيقة، كنت دائما أتساءل ما علاقة هذا الشخص بالقرآن.

• من فضلك. "راك خدام"، ولا تضيع وقتك ولا وقتنا. عد بنا إلى ما كنت فيه، ودع عنك هذه الذكريات.

• ما الغرابة في هذا ؟ ألا تعرف المفارقات الزمانية ؟

• من فضلك إما تتابع أو نجعل صاحب البذلة أقسى من فقيهك.

• حسن قلت. ها أنا أدخل المكتب. تقدمت خلف العون بعد أن تخلصت من يد "المخازني"، خائفا وجلا، ترتعد فرائصي، وكأني مقبل على...عفوا. هل تسمح لي بسؤال؟

• تفضل.

• هل قرأت "ذاكرة الغياب"؟

• ربما . لا أتذكر.

• وهل قرأت "هموم بطة" ؟

• وفيم سيفيد كل هذا الآن؟ تابع من فضلك.

• قلت. فقط. ربما كان في مكنتي، أو ربما، يمكن أن..لكن ما دمت لم تقرأهما فلا حاجة لمحاجحتك.

• أقلت المحاجة؟ وما شأنك والحجاج؟

• لا أقصد الحجاج في الفلسفة. أقصد التماهي.

• ومن أين لك بهذا المصطلح ؟

• ابتليت به على حين غرة.

• كنت، بحسب قولك، في المكتب المفروش بالزرابي. دلفت إلى المكتب. فماذا حدث بعد ذلك؟

- سمعت فيما يسمع الحالم، صوتا رخيما، اهتز على نغمه بعض أعضائي. ظننت، وبعض الظن إثم، أن الصوت لامرأة. لم أجلس أمام امرأة منذ زمن. وأنا واقف ، أتلظى بين التخمين والظن والغنة، إذ بصاحب البذلة يهوي على قفاي مرة أخرى. تقدم. تقدمت. اِجْلِسْ. لا قف. اِسْتقِمْ. استقمت. انتبهت إلى أني أتحرك وفق طلباته، وكأنه يتحكم في أطرافي بواسطة جهاز. نظرت أمامي. لاحظت، لأول مرة. وأمامي مباشرة، شابا مليحا، هكذا بهذه الصفة "مليحا"، مهندما، متكئا، باسطا يديه البضتين ورجليه المنفرجتين، ينظر ناحيتي من خلف زجاج نظارتين سميكتين، ويتفرسني وكأنه يستطلع أعماقي ودواخلي، فقذف في قلبي الرعب. أشار علي بالجلوس، وطلب من

الرجلين الانصراف. وما إن خرجا، حتى عاد إلي بعض الهدوء، جلست. لمز زرا على المكتب، فسمعت دقات خفيفة على الباب. أُدخل. دخل نادل يحمل صينية عليها كوبا بن طازج يفوح. وضع أحدهما أمام المهندم، ووضع الآخر أمامي. مد إلي الرجل. من يكون؟ بسيجارة، ما كان لي برفضها، وإن كنت أقلعت لزمن.. متى يا ربي؟ كنا نخرج في المساء، نتجه إلى مقر الحزب الجديد..قال مرافقي الذي ضاع في زحمة الحوادث: علينا أن ننقطع عن المجئ لبعض الأيام حتى لا يعرفوا سبب دوام حضورنا. قلت: وإن عرفوا، سننقطع بصفة نهائية. قال: لكن، ألا ترى بأنه قد مر علينا أسبوع ونحن لا ندخن إلا "ماربورو". اشتقت إلى "كازا". أصبحت حنجرتي تؤلمني وأخاف أن أصاب بذلك المرض الخبيث الذي يصاب به الأغنياء. قلت: ذلك بسبب شراهتك.

كنا نقصد المقر، لأن أصحابه لم يكونوا يبخلون علينا بسجائرهم الفاخرة، وكؤوس الشاي، وبما أن سنواتنا كانت أعجف من سنوات صاحب "السنوات العجاف"، كان لابد من الذهاب. المشكلة أننا لم نكن متعودين على ذلك النوع. هكذا اتفقنا أن نتغيب لبعض الأيام .

أثار انتباهي وجود شخص ثان في المكتب يجلس إلى آلة كاتبة. في الحقيقة، لو لم أسمع طقطقة تلك الآلة ما انتبهت إلى وجوده. خمنت. إنه يكتب ما نسميه، ربما، الديباجة. قال الرجل الذي يجلس قبالتي، وهو يتأمل ملفا أمامه:

- الاسم الكريم ؟

وقبل أن أتفوه ببنت شفة، أردف:

- أظن الأستاذ...

- ومتى كنت أستاذا ؟

واصل وكأنه لم يلحظ جراءتي، أو يهتم بما يجول في خاطري.

- توصلت بتاريخ..باستدعاء للحضور، لكنك رفضت، وهذا الرفض دليل على عصيانك للسلطات المحلية، وعدم تعاونك معنا من أجل مصلحة البلاد.

- عفوا سيدي. لم أتوصل بالاستدعاء إلا اليوم.

- لكن توقيعك المذيل هنا، يشير إلى أنك توصلت بها بتاريخ...

– لا يا سيدي. لم أتوصل بها إلا اليوم، ولم يتجاوز الفارق بين توصلي بها، وحضور العون وصاحب البذلة، على أكبر تقدير خمس دقائق.

– إذن أنت تكذبني، أم تكذب الوثائق؟ أخمن أنك تضيف إلى تهمك تهمة أخرى.

– عفوا سيدي!

– المهم "اللي نطولوه نقصروه". نحن نراقب تحركاتك الداخلية والخارجية منذ مدة طويلة. وتبين لنا بأنك تعمل سرا على زعزعة أمن البلاد واستقرارها، بتحريض من جهات خارجية، أو ربما تعمل لمصلحة منظمات إرهابية دولية.

– عفوا سيدي. ماذا تقصد بخارجية، ولمصلحة...؟

– أنبهك آلأستاذ أن ميثاق العمل ، هنا ، يختلف عما عهدته ربما، هنا أنا الذي يسأل، وأنا فقط، وغيري يجيب، وفي حالات خاصة جدا، يمكن التسامح، أما إن كان هذا الغير خارجا عن القانون، أو ينوي ذلك، أو يحاول، أو يفكر في المحاولة، أو حتى يحلم، فالأمر يختلف، وينتفي التسامح، أما إذا

كان يفكر، وبإيعاز من الخارج أو من الداخل، فالأمر، أضيف، يستدعي ميثاقا أكثر تشددا. عليك فقط، أن تجيب بنعم أو بلا. أنا الحاكم هنا، وأنت المحكوم.

- عفوا سيدي. أنا ألفت التعامل مع بعض الصيغ الخاصة، مثل "فعل" "فاعل" "مفعول"، أما محكوم هذه التي يظهر لي أنها تنتمي إلى الصيغة الأخيرة، فأنا أتحفظ، ثم أنا أطالب...

- لا مطالب هنا. قضي الأمر.

- عفوا سيدي!

- في هذا الملف، مجموعة من التقارير تخص شخصك الكريم. تقارير يومية؛ داخلية وخارجية.

- عفوا سيدي. هل تسمح لي، هذه المرة فقط، بأن تبين لي ماذا تقصد بداخلية وخارجية؟

- إذا كنت مصرا، ولهذه المرة فقط، احتراما لشخصك، وربما لرغبتك الأخيرة، أقول لك آلأستاذ، وما دمت، كما أسلفت تصر، هكذا بمعنى الكلمة، ونحن لا نهتم كثيرا

بالمصطلحات والمفاهيم ووضع الحدود والتعريفات، وذلك شأن غيرنا. نحن عمليون. ندون كل صغيرة وكبيرة. لا نهتم بالتفلسف. فلسفتنا عملية مستمدة من مبادئ ديكارت، لكن في بعض الجوانب . لدينا جذاذات لكل شخص يقطن في دائرة نفوذنا. نراقب الداخلين والخارجين، من الداخل ، ومن الخارج. أُنظر هذه مثلا، جذاذة تخص أنشطتك الداخلية، أي داخل بيتك، وبين أفراد أسرتك، وهذه الجذاذة تخص أنشطتك الداخلية أثناء مزاولة عملك أي داخل عملك، وهذه تخص أنشطتك الداخلية الخاصة جدا، أي علاقتك بداخليتك الأخرى أي بحرمك، تتضمن الصغيرة والكبيرة، وإن شئت أوضح لك، وأظن شرح الواضحات من المفضحات. أم أنك ترى غير ذلك؟ وأذكرك بالأيام والساعات والليالي. خذ يوم كذا، على الساعة كذا، أطفأت النور، نزعت ملابسك، وكأنك تظن نفسك بعيدا عن أعيننا، طلبت من حرمك أن تفعل مثلك. إن شئت لدينا أدلة بالصوت والصورة، ما رأيك؟ إن شئت أطلعتك على بعض المشاهد المخزية من ممارساتك المنافية للأخلاق والقوانين. وهذه الجذاذة، خاصة بهواجسك، وهذه بأفكارك، وهذه بخيالاتك الجامحة، وهذه خاصة بتابعك،

وأعني الشخص الآخر الذي يقبع داخلك، أو ربما هناك أشخاص. أنت متعدد. واحد متعدد. شعب سبحان الخالق! واعلم أننا نعتمد على متخصصين في جميع الميادين. هل تظن أن انفصامك يخفى عنا، إننا نعتمد التحليل النفسي. انظر هذه الجذاذة خاصة بأناك ، وهذه بأناك الأعلى، وهذه بهواك ، وليكن في علمك أنه مؤخرا اختلط علينا الأمر بعض الشيء، في أمور بعينها؛ فقد التقطت أجهزتنا حوارات داخلية تم فيها الترويج لنوع خاص من القاموس مثل الشياع، دولة، دولة داخل دولة، الأمور ما الأمور، الصديق، والسلطة والأعوان، والمخابرات... و"زيد وزيد". وهذا ما تطلب إحضارك، فنحن نريد تفسيرا لما غمض عنا من شفراتك، وحل هذه الشفرات سيساعد على فك بعض الألغاز. خلاصة الكلام، عليك أن توضح ما استعصى علينا من دواخلك، وما غمض على أذهاننا من ترهاتك. نحن نهتم بهذه الأشياء حتى ولو كانت صغيرة، أو هكذا يمكن أن تبدو في أعين أمثالك. أنت تعلم أن الأمور الكبيرة تبدأ هكذا، أو تبدأ صغيرة وفجأة تكبر. إوَ..اِفترض أننا تركنا كل الأمور الصغيرة تكبر. ماذ سيحدث؟ آه ! مهمتنا مقدسة يا هذا. نحن نسابق الزمن. نحاول بكل ما أوتينا الوقوف دون لحظة

التحول؛ في تلك النقطة التي .. الأمور كالأجنة. أنظر..انظر.. كل المخلوقات تتحول في لحظات بعينها. نحاول أن نجعل هذا التحول يتم بسلاسة ووفق مخططاتنا التي تضع المصلحة العليا فوق الرؤوس، أو تسير حذاءها، أو، إن شئت.. ويستحب.. ويمكن.. ويستحسن.. أن تخدم المصالح العليا. أنبهك، وأنا متأكد من سوء نيتك وسوء تأولك وحساسيتك المفرطة تجاه بعض الألفاظ. المهم لا يهم المقصود بـ"المصالح العليا"، فنحن متفقون على المصالح العليا هكذا وكفى. وحتى إن أجبتك واجتهدت..و..و..فأنت مجبول على التأول والتأويل والتخمين والظن، ويقف على رأس أسباب سوء نيتك وإفلاس ظنك فراغ بطنك وفؤادك، وضعف الروح الوطنية لديك، ولا حاجة للزيادة، ومثل هذا مثل ما يدعى "حسن التخلص". بل إنه حسن التخلص عينه ونفسه وكله وكلاه وكلتاه والسلام. أن تتحدث عن انفصام، أنا متفق معك، وكذلك الوعي واللاوعي، أما أن يصل الأمر إلى "شعب" "دولة" و"دولة داخل دولة" و"شعب" داخل "شعب"، فهذا يستدعي التدقيق والتأكد من نواياك السيئة والأطراف الداخلية والخارجية التي تعمل لحسابها أو وإياها، فربما كنت جاسوسا أو

جاسوسا مزدوجا، أو حتى متعددا، وهذا ما حير خبراءنا ومخابراتنا. هل فهمت الآن ما المقصود بالداخل وبالخارج؟ ولك الكلام. تفضل اِعْترف. تقيأ ما في جعبتك.

أصبت بذهول. لفني فراغ لا محدود..ربما..متى..؟ من..؟ كيف..؟ استسلمت. أصاب حواسي انهيار تام. قلت: أمهلني يا سيدي دقيقة أسترجع فيها أنفاسي. تلذذت بالسيجارة الشقراء. تركت الدخان يتصاعد نفثا من بين شفتي حينا، ومن منخري أحيانا. أبتلع أكثره. أحسست بدوار خفيف، أنساني لوهلة ما أنا فيه. بدأت أطرافي تتنمل. قلت للآخر الذي فيَّ: ما العمل الآن؟ الرجل ينتظر مني الاعتراف، وكأنني أمام قسيس. شاهدت مرة مجرما من المافيا يعترف لقسيس بجرائمه، وما جرائمي أنا الذي لم يسبق له أن آذى بعوضة، وهي تمتص من دمي؟ ما العمل؟ أشر علي، فلطالما أشرت، أنت المستشار. آالخماس. آالرباع. آلمياوم. خذ لك النصف، وإن شئت خذ كل شيء مقابل مشورة تنقذني من ورطتي التي أنا منغمس في وحلها إلى العنق. اَشر، رحمك الله. أنت يا عابر سبيل. إن أشرت ولو ما يخفف قليلا من ثقل هذه اللحظات سلمت لك كل ما أملك. قلت: وماذا تملك؟ لا عليك، سأملك، وسأمتلك، ربما فيما

سيأتي من الأيام، إن طال بي العمر، سأتنازل لك عما سأملكه، في المستقبل، مسبقا.

- هل لي يا سيدي بسؤال آخر؟

- الآن وقد عرفت. لك كل الأسئلة. يظهر لي أنك عدت إلى رشدك. عيناك تفضحانك. نظراتك البلهاء ترشح بالهزيمة. نحن نفضل المهزومين، نفضل المنكسرين، نساعد على زرع الهزيمة والانكسار، لنحصد الطمأنينة والأمان، والأمن، والسلم، والسلام، نأخذ كل شيء؛ الحب والتبن، وحتى صاحبهما، إن تبين لنا داع لذلك، ونتعامل مع من يظهر مسكنة أكثر. وإن شئت الوضوح، نريد إذلال من يسعى إلى المس بمؤسساتنا.

- أكنت وحدي في كل هذا الذي تتحدث عنه، أم كان معي شركاء؟

- نعرف عن شركائك بمثل ما نعرف عنك وأكثر. فقط نريد أدلة. نتعامل بالأدلة الملموسة، نحترم حقوق الآخرين، سجلنا من هذه الناحية أنصع من الثلج، باعتراف

المنظمات الوطنية والدولية. نريد اعترافا منك، وتأكد بأن أي خطأ، أقصد عن قصد أو عن غير قصد، كذب مثلا، سواء كان صغيرا أم كبيرا ستدفع ثمنه غاليا. واعلم أنك ما زلت في المرحلة الأولى. هناك مراحل أخرى؛ ثانية، وثالثة، ورابعة، وخامسة، وربما قضي أمرك في أولاها، إن صدقت، أقصد لن تمر إلى المراحل اللاحقة، إن أبديت تعاونا، ولا حاجة لأن أفصل لك، ستعرف كل شيء في حينه. هذا يتوقف عليك. أعني على مدى صدقك، وحسن نيتك، وتعاونك جملة أو بالتقسيط المريح.

- أمهلني سيدي أستجمع أفكاري، فذاكرتي، كما ستعرف كثيرة الثقوب.

- نحن أيها السيد المحترم هنا لرتقها، نحسن الرتق، إن شئت، ونتقن التخريم، إن رغبت. لديك الوقت الكافي، وأنبهك، إلى أن التخريم الذي نمارسه يتجاوز الذاكرة إلى أشياء أخرى لا حاجة لذكرها الآن. المهم لديك الوقت الكافي، وسأعمل كل ما في وسعي لمساعدتك، وتوفير راحتك وتلبية رغباتك. ألا ترى بأننا نكرم ونحسن الإكرام؟ أنت

ضيفنا الآن. خذ هذه مسجلة، وهذه أشرطة، وهذه رزمة أوراق، وهناك الكثير منها في ذلك الدرج، وإن احتجت إلى الآلة الكاتبة، هناك مساعدي تحت تصرفك، سيتناوب على حراستك مجموعة من الجنود إلى أن تنتهي، حينذاك سيراجع معك مساعدي. إنه كائن آلي، لا يحتاج إلى استراحة، يعمل ليل نهار. هذه الخردة الآلية تقدم لنا مساعدات جليلة؛ لا تحس ، لا تتألم، لا تكل ولا تمل. تنفذ الأوامر ، ولا تجادل، ولا تسأل. إن كانت لديك طلبات أخرى، أو كنت في حاجة إلى شيء ما خاص أو عام اطلبه في حضرتي.

- أريد سيدي، بعض علب السجائر، كفاية أسبوع أو شهر، فربما ازدادت شراهتي، واستطالت شهيتي. وهل يمكنني أن أشتغل على مكتبك هذا؟

- هذا ليس مكتبي. هذا مكتبك الآن. إنه مكتب خاص بالاعترافات الأولية. أما مكتبي فيوجد في الجهة المقابلة. انظر؛ لديك هنا خزانة كتب. ربما احتجت إلى مصادر أو مراجع أو مساعدة في اللغة، أنت لا تملك مثلها في بيتك. هذه أضحوكة؛ مواطن يشتغل بالمعرفة، ولا يتوفر على خزانة! أنت

تثير السخرية. بل أمثالك كلهم يستحقون السخرية. ستحتاج إلى بعض الموسوعات والقواميس. قم تعال أطلعك على محتويات الرفوف والأجنحة. هذا جناح خاص بالتاريخ؛ التاريخ العام والتاريخ الخاص. هذا جناح اللغويات؛ ها الخصائص، ها تقويم اللسانين، ها التعريفات. وهذا جناح القصص، قبحا لك ولها. هذا جناح الفلسفة؛ ها تاريخ الفلسفة، ها الفلسفة الحديثة ها المعاصرة. وهذا جناح الرواية، وهذا جناح النقد.

- هل قرأت كل هذا يا سيدي؟

- أنا لا أقرأ، وهذا لا يهمك. المهم أن تشتغل، وتجتهد في الاعتراف، نحن نقوم عملك ونقارنه بما عندنا، وإن شئت عندنا لجان خاصة للتقويم والتصحيح. لا تسأل ، لا تكثر من السؤال. فكر في العمل. لا تستعجل ، ففي العجلة الندامة.

آه لو كان معي ذلك الصعلوك! على الأقل، إن لم يستطع التدخين، سيساعدني على قدر الحال، يدخن، يثرثر، وهذا هو المهم. الثرثرة. هم يعرفون كل شيء، فلماذا ، وبماذا أعترف ؟

- هل لي سيدي بإبريق قهوة بلدية معطرة ببعض القرفة والإبزار؟

- إنه أسفل المكتب، نحن نعرف كل عاداتك. لا تقلق. سأنصرف الآن، وأتركك تستمتع بحريتك. المكان هادئ. سيساعدك هذا على التركيز. إلى اللقاء.

انصرف الرجل، وبقيت وحدي. لا. بل هناك المساعد قابع في ركن الحجرة المظلل. يكاد الداخل، بل حتى الموجود، لا يراه. قال إنه رجل آلي. سأتأكد من الأمر. لا يمكن للآلة أن تتفوق على الإنسان، هذا ما برهن عليه "كاسباروف". اقتربت من الرجل. كان مشبكا أصابع يديه، ولا يبدي حراكا، كأنه منشغل بمراقبة نقطة ما لا يحيد عنها. اقتربت أكثر. كيف أتأكد إن كان بشريا أم آليا؟ هل أطلب منه نزع سرواله ؟ فكرت. سأقدم له سيجارة. لم يبد حراكا. ربما كان لا يدخن. أشعلت واحدة ونفثت دخانها تجاهه، إن كان لا يدخن فسوف، على الأقل، يصاب بسعال. لم يصدر عنه أي رد فعل. علي أن أعود إلى تقويم اللسانين للأستاذ الحدادي، وأتأكد إن كان علي

استعمال "أي" أم "أية". نسيت . علي أن أبدأ. هذا ليس أوان اللهو.

- أنا أساعدك.

- ومن تكون أنت؟ من أنت؟

- أنا الخماس، أو الرباع، أو المياوم.

- وأنا أيضا أستطيع ذلك.

- ومن تكون أنت بدورك؟

- أنا عابر سبيل.

- كيف حضرتما إلى هنا، ومن أين دخلتما؟

- دخلنا معك. نحن نوجد داخلك، لا خارجك.

- إذن أنتما من كان يتجسس علي، ويقدم التقارير. ولم يكفكم الاستيلاء على مشروعي.

- دعك من هذه الوساوس. نحن هنا لمساعدتك. أتذكر، نحن شركاء، أليس كذلك، أم أنك نسيت؟

- لا. لم أنس. لكن ما دخلكما أنتما في ما أنا فيه؟

- أنت في قاع المشكلة الرئيسة.

- انتظر؛ لماذا قلت الرئيسة، ولم تقل الرئيسية؟

- عليك بتقويم اللسان وتقويم اللسانين، والأخطاء الشائعة ، ثم هذا شأنك. أنت تعرف بأنهم "سيبقشون" في كل صغيرة وكبيرة، ويبدأون عادة باللغة، ثم يأتي دور الأفكار والشكل فالمضمون، وما إلى ذلك.

- يا إخواني، أنا في ورطة، وفي حاجة ماسة للمساعدة.

- ماذا تقترح إذن؟

- ألم تكونا تبحثان عن عمل؟ علينا اقتسام الأدوار.

- عفوا، علينا أن نسوي بعض المسائل العالقة، ثم نبدأ، وتسعدنا مساعدتك، أما بيننا فقد تفاهمنا على كل شيء. الأمر الآن بيدك.

- ألم تقل أنت بأنك كنت تريد أن تشتغل خماسا؟ وأنت ألم تكن تبحث عن عمل كيفما كان؟ ألم تكن تريد أن تشتغل مياوما؟

- نحن نشتغل بحسب الأوضاع. بالأمس كنت أبحث عن شغل مقابل الخمس. اليوم أريد أن أكون، لنقل شريكا، وربما صاحبي عابر السبيل، فوض لي أمره، أو لنقل أصبحنا كلنا شركاء.

- كيف اتفقتما بدون استشارتي؟

- لم تعد أهلا للمشورة. نحن الآن من يقترح، ومن يقرر، وأنت تنفذ. تنفذ وتغلق فمك. وهذه مسودة العقد.

- ما هذا ؟ أتذكران اسميكما بدون ذكر اسمي؟

- أنت ستشتغل معنا؛ خماسا أو رباعا، أو يكفيك العشر. ولنقل بصراحة بأنك ستصير عاملا متطوعا.

- من سيشتغل مع الآخر؟ أنا أم أنتما؟

- بل أنت. هذا ما توصلنا إليه، ستنفذ كل ما نأمرك به.

- أجئتما تشتغلان، تبحثان عن شغل، أم تبحثان عمن يشتغل؟ كيف أنقلب أنا المشغل ورب العمل، إلى عامل، وعامل بالعشر، ومتطوعا؟

- ألا تريد أن تفهم؟ اِنقلبت الأوضاع. هذا عقدنا، وقعه ونفذ وأرحنا. وإلا انصرفنا وتركناك.

نظر إلي مساعد. مساعد من؟ وماذا يفعل هنا؟ جلست وكأنني أتذكر شيئا. لم يكن في الحجرة غيري و"مساعد من". ومن أين جاء الخماس وعابر السبيل؟

- أنا لست خماسا.

- وأنا لست عابر سبيل. نحن شركاء.

- حسن. لا تجعلاني أجن. آمل أن تكون مساعدتكما في محلها.

- بل مساعدتك أنت. سنقترح عليك أن تكون ...

- الرئيسة أم الرئيسية؟

- هذا شأنك. المهم . أنا سأكون المؤلف.

- أنت. أنت تكون المؤلف أيها الكذاب.

- نعم أنا سأكون المؤلف، وصديقنا عابر السبيل سيكون. ماذا تفضل أن تكون يا شريكنا العزيز؟

- أفضل أن أكون السارد. لا عفوا. المروي له، وهو سيكون الراوي،أو حتى البطل، أو الشخصية الرئيسة. عليه أن يخضع لطلباتي. ثم لماذا لا تجعل منه ..لنقل جارية، وتصيرني سيدها مثل شهريار . أحب أن أراه يتعذب. إن لم يرو لي ما يروق سأقطع رأسه.

- هكذا إذن أيها الخائن. تستغل ضعفي، وتضيف إلى خستك بأن تريد أن تحولني إلى أنثى أنا الفحل. ثم أروي لك أيها المتسخ. لك أنت، مقابل حياتي. سأريك. سترى يا من لا حسب له ولا نسب.

ذكر تمام التحول الملتاع

في التطبع والطباع

هل حكم علي أن ألبي الطلبات فقط؟ هل أنا مجرد أداة تنفيذ؟ علي أن أتصرف. كل شيء ممكن؛ الأوضاع تنقلب. الحيوات تتغير. عليك أن تعرف أنك في إقامة إجبارية، وتتصرف وفق هذا المعطى، كما يقولون، أنت في ورطة.

وأنا أتذكر ذلك اليوم. أنط من البركة إلى اليابسة. أركب هذه الورقة. أراقب اليرقات. أنطلق في الماء. أصعد إلى اليابسة، أتغافل وأنتظر. تمر ذبابة، ألقفها بلساني الطويل، وأبتلعها. سمعت خشخشة. هذه الخشخشة أعرف مصدرها جيدا. وقبل أن ... كنت طوال الوقت أتأمل لوني الأخضر الجميل. افتتنت بلوني إلى درجة الوله . أخذت أتأمل عنقود بيض إحدى رفيقاتي في قعر البركة، قريبا ستتحول إلى يرقات، لاشك، ستكون شبيهة بأمها. أخذتني الفتنة بزميلتي تلك، وبخاصة أغوتني عيناها

العسليتان. ظهرها الأملس يثير شهيتي. راودتها يوما عن نفسها، فرفضت، كانت مرتبطة برفيق آخر وترفض غيره. ضفدعة ملتزمة. عالم البشر يثير الشفقة. أتذكر يوما، حضر فيه بشر إلى بركتنا. نجوت بأعجوبة. اخذوا رفيقها. رأيتهم يشوون فخذيه، ويمشمشون سيقان بعض ضفادع البركة. كان يوما حزينا. عالم هؤلاء أكثر توحشا من عالمنا. نجوت بالصدفة، لولا تلك الأفعى الخبيثة لما نجوت. الأفعى! وماذا كانت تلك الخشخشة. وقبل أن أستدير، أحسست بوخز ذلك اللسان المشقوق. ومن حسن حظي أنه أصابني في مكان قشرته صلبة، وإلا كنت في عداد الموتى. قفزت بسرعة إلى البركة وغصت إلى أن اصطدم رأسي بعنقود البيض. نظرت إلى أعلى لم أر غير موجات الماء على السطح والرغوة التي أحدثها اصطدامي. يمتزج الجمال في هذه البركة، بالحياة وبالموت. نحن لا نهاب الموت، فقد ألفناه وألفنا إلى درجة أن المهم عندنا هو استمرار النوع، نهب حياتنا لغيرنا، الذكور للإناث والإناث لبيضها.

لبثت طويلا في القعر لا أحرك ساكنا، أراقب تموجات الماء. أعرف أن اللعين يمكن أن يتبعني إلى حيث يشاء. إن حاسة شمه قوية. ظللت مختبئا لمدة زادت عن الساعة، وحين تأكد لي

خلو المكان، صعدت بتؤدة. أقعيت على وريقة خضراء بمثل لوني، وأخذت أراقب ما حولي. كان المكان هادئا إلا من زقزقة العصافير ونقيق الإخوان والخلان. وأنا في وضعي ذاك أتلذذ بانتشائي، إذ بشيء صلب يرتطم برأسي، وأحسستني أرتفع في الفضاء، بعيدا عن البركة، وبجسدي الرخو يرتطم بصخرة، فقدت على إثر الاصطدام بها وعيي، إلى أن استفقت في المكان الذي ستعرفون.

أما كيف استرجعت وعيي، فلذلك حديث. رأيت فيما يرى النائم أني في مكان مظلم ودافئ. كنت أحاول استجماع حواسي الضفدعية بالتدريج. وجدت صعوبة كبيرة في فتح عيني. استنفرت سمعي. لا صوت. فقط فحيح قادم من جوف الظلمة، حسبته في البداية صوت ريح يداعب وريقات يابسة في أعلى شجرة سامقة. يبتعد الصوت ويقترب. في غبش مشوش من ذاكرتي، بدأت تنمو صورة ضفدع بشري أو إنسي ضفدع. رأيت طفولتي. اكتملت في قحفي صورة عمن أكون، وعمن كنته أو خلت أني كنته. في البداية استعدت بعضا من معرفتي بأناي، ومن أناي هذه انطلقت أتأمل شريطا يتقدم في الأزمنة والأمكنة إلى اللحظة ما قبل اللحظة. ما الذي يكون قد حدث؟

حمدت الله على أني لازلت أتنفس، رغم بعض الاختناق. لكن ما هذه اللزوجة المحيطة بي؟ هل أنا في جحر؟ حاولت الوقوف، فانزلقت. لا شيء غير الظلام واللزوجة. انتبهت إلى صوت بعيد يأتيني عبر الجدران الرخوة. دق..دق..دق.. على إيقاع رتيب، وكأنه دقات "مهراز" تداعبه يدا امرأة متمرسة. لم أفقد حسي البشري. حمدت الله على ذلك، وشكرته. تأكد لي أن ذلك الراوي اللعين يحاول الإيقاع بي، وإخضاعي لتجارب قاسية. وكما يحدث في الحلم، حين يجد الحالم نفسه في ورطة، فيحاول الاستفاقة، حاولت بدوري مستنهضا حواسي. إلا أن محاولتي باءت بالفشل، وتأكد لي أن الماسك بخيوط اللعبة سيمررني خيطا رفيعا من ثقب إبرة، وأن مجال حريتي محدود، وما علي إلا أن أستغله، على الأقل، فيما يخفف عني بعض ألم المزالق والمقالب، لأخرج بأقل خسارة ممكنة. صرت دمية كما في عرفهم يقولون. فحصت الجدران فوجدتها أشبه..أأكون في..أمن المحتمل أن أكون..؟ كانت الظلمة تحول بيني وبين تمييز الأشياء بدقة تمنح لي فرصة الحكم عليها أو تحديد حتى موقعي. أأنا في جحر أم في ..؟ إذا اعتبرت نفسي في جحر، فهذا غالبا ما يكون من تراب، ولا تراب حولي، وحتى إن افترضت المسألة كذلك،

فالجحر لمن، أو لما؟ تأكد لي ، الأمر الآخر، بعد أن أخذت تقلصات قوية للجدران من حولي تدفعني في اتجاه أحادي، وتفرز سيالات نفاثة كريهة تسربت إلى رئتي، فأخذت أسعل وأخبط . تحرك الجحر أو ما خلته جحرا. حاولت التمسك بشيء وأنا أتدحرج، فلم أجد ما أتمسك به إلا الرخاوة واللزوجة. أصبت بدوار، ثم بدأت أفقد وعيي مرة أخرى شيئا فشيئا إلى أن غبت عن الوجود.

- هذه البداية فقط يا "راس المحاين" .

- سنصيره مثل "رأس اليتيم" نتعلم فيه أصول الحلاقة.

- سنذيقه الموت بالتقسيط.

- لكن علينا أن نبقيه حيا، فنحن لازلنا في حاجة إليه.

كان الصوت خافتا. ثم بدأ يرتفع . ربما كان سمعي هو الذي بدأ يسترد بعض عافيته. لست أدري. لكن خيل لي أن الأصوات التي أسمعها لم تكن غريبة . انتفضت فجأة.

وجدتني ملفوفا في قشرة صلبة كأني في شرنقة. هل حولني اللئيم إلى دودة؟ نظرت حولي فتبينت أطرافي. هدأ روعي حين تأكد لي بقائي على الصورة السابقة. الرائحة الكريهة لا تزال تخنق أنفاسي. هل صرت..كيف أسافر في أنبوب هضمي، ثم ألفظ فضلة حية؟ لا يمكن لفضلة كائن أي كان أن تبقى على قيد الحياة. أنا الآن إذن فضلة. فضلة حية، تفكر، تحلم، وتتذكر. يا لعدو الله، يصيرني فضلة! لا يخاف ولا يستحي. فجأة سمعت خبشا على جدران الشرنقة، وتبين لي، بعد تمحيص وتدقيق نظر، من خلال منفذ شفاف، ظل كائن غريب، وهو يقارع ما أنا عليه، يتقدم. يتراجع. يرفع قوائمه المزغبة. يدفع بالخلف أحيانا، وبالأمام أخرى. أراه الآن بوضوح. يا للفظاعة إنه .. إنها..ما هذا ؟ خنفساء! لم يسبق لي مشاهدة خنفساء بهذه الضخامة، وبهذا الشكل. أتكورني هذه الخنفساء، إذن.. ها هي تتموضع. تتقدم..تتراجع..تعود بمؤخرتها. ترفع قوائمها الخلفية. خلفيتها فضيعة. هل تنتقم هذه اللعينة لبنات جنسها التي التهمتها سابق؟ شبكت الخلفيتين المزغبتين فوق، وأخذت تدحرجني. تذكرت شريط "كيوما" وهو مربوط إلى عجلة. إلى أين ستأخذني هذه الممسوخة. أصبت

بدوار. اندلق القيء من أحشائي. لست أدري كم مر علي من الوقت وأنا على هذه الحال. ظننت أنه بمكنتي رفض هذا الدور، إذ كيف أقبل، وأنا في سني تلك، أن أكون فضلة، ثم فضلة تكورها خنفساء، طالما احتقرت أمثالها. ولا تكتفي بالدحرجة، تواجهني بمؤخرتها، ولا تكف تبصق علي بسائل تأكد لي كنهه، حاشاكم. أعرف أنني في ما يشبه الحلم. انتفضت.

- إلا هذه!

- علينا عقد جلسة طارئة. لا يمكن أن نترك الخنفساء واقفا على هذا الوضع، لأنك فقط، رفضت الدور. هل تعرف ما ينتظرك؟

- قلت جلسة. إذن علينا عقد جلسة، ونتفق على ميثاق عمل. لا يمكن أن أقبل بكل ما ترغبان.

- لست من يختار. صاح عابر السبيل.

- أتريدان مني أن أرضي شذوذكما بهذه الطريقة. يصيرني فضلة وأنت تستمتع، وتقول بأنه ليس من حقي أن أختار؟!

- آسف. أنت لم تع وضعك بعد. ما عسانا نفعل من أجلك. ما ينتظرك أفضع. هل سبق لك مثلا أن ذقت فلقة أو شربت ذالك الشيء. لا زلت في المرحلة الأولى. لا قدر الله إن فشلت، ولا أتمنى لك ذلك، وعلى الأقل ستكون مررت بتجربة مماثلة، أو تكون قد مرنت جهازك التنفسي، لأنك ستحتاج أيضا، إلى تجربة أجهزتك الأخرى.

- بين! ماذا تقصد بالأجهزة الأخرى؟

- أجهزتك التناسلية، مثلا.

- وما شأن أجهزتي تلك بالأمر؟

- ستعرف في المراحل اللاحقة.

- لا. لا. يمكن. أرفض التجربة من أساسها.

قال الخماس، أو الرباع، أو صاحب العشر الذي صار صاحب المشروع:

لست أنت من يختار. ثم، نحن ننبهك فقط، من باب الأخوة وقرابة الشراكة، ولن نمس بها دون ذلك، فهمت؟

- من تقصد بهم؟

- أنا لا أعرف، قال عابر السبيل، سمعت، ولم أر. لكن ربما كانوا في المراحل المتقدمة يتعاملون ببعض الطرق المنفرة، وبوسائل خاصة.

- مثل ماذا؟

- قنينة "كوكا" تخرم مؤخرتك. أعني أنهم سيـ...

- توقف. هذا يثير اشمئزازي. إلا هذه! لن أرضاها. أبعد أن بلغت من العمر عتيا يُفعل بي ما تقول؟

- هم لا يميزون بحسب السن أيها المغفل. قال الراوي.

- ما العمل إذن يا إخوة النصح والشراكة ؟

- أنت لا تزال في بداية الطريق، وصديقي عابر السبيل يريد الاستمتاع. إنه يطالب بالعجب.

- وهل العجب أن أكور بهذه الطريقة الفظيعة؟

- لا تخف سأنتقل بك إلى شيء يرضيك ربما، لكن تأكد من أن اللجنة لن تقبل بذلك.

- عن أي لجنة تتحدث؟

- عن اللجنة التي سيعينها "رئيس من".

- آه نسيت. ألا يمكن أن تغير على الأقل، الخنفساء الذكر بخنفساء أنثى، فقد كرهت النظر إلى ذلك الشيء المتدلي من أسفله.

- عليك بالصبر، وكل شيء في حينه.

وأنا على تلك الحال، تبين لي أن الخنفس اللعين يتجه بي إلى أعلى تلة. ازدادت صعوبة دحرجتي، وعن لي قول أبي نواس "فتدحرجت من التحت إلى فوق". خمنت، من خلال حركات زغب الخنفس واتجاهه، أننا قريبان من رأس التلة. كلما مضينا أعلى ، كلما ازدادت قوة الرياح.

كنا نجد متعة كبيرة في اللهو بالخنافس السوداء وهي تدحرج كرات فضلاتنا الآدمية. كنا نفضل للسبب نفسه قضاء حاجتنا الخاصة في العراء، وهذا لا يعني أن بيوتنا كانت تتوفر على مراحيض، لأن المرحاض في ذلك الزمان كان من الكماليات، ولا يوجد إلا في بيوت الأعيان. بل أحيانا حتى هؤلاء كانوا يلتجئون إلى الخلاء، لألفتهم به، ولقرب عهدهم

بالمراحيض. كنا نختفي في الأصياف، في خلج الصبار ونراقب قدوم تلك الخنافس السوداء الكبيرة. نتركها إلى حين الانتهاء من تشكيل الكريات، فننقض عليها بالضرب بالحصى. نتبارى في إصابتها، وأحيانا نعمل على دهسها. كانت خالتي تحكي لنا كثيرا قصة الذئب مع الخنزيرة، ونقارن أصوات خنافسنا التي نسجنها في علب القصدير، بأصوات خنافس عمي "يحي" التي وضعها في خابيات الماء ، ليدعي أنها أصوات أبنائها، بعد أن التهمهم، ليتمكن منها بدورها في الأخير.

الريح قوية تلفح الجدار السميك. الخنفساء تحاول جاهدة مغالبتها؛ تنشر جناحيها، وتنشب أظافرها الرقيقة في جدار الكرة، ثم تطير. لم أحلم أبدا بالطيران. حدث ذلك في بعض أحلام الطفولة، أقصد الطفولة الآدمية. هل أنا إنسان أم ضفدع؟ وهل هذا المخلوق الذي يكورني أنثى أم ذكر؟ يتبين مما يظهر لي من ذلك الشيء المتدلي من أسفله بأنه ذكر. ربما كنت إنسانا في جلد ضفدع، وربما كان العكس أيضا، ولكن المؤكد أن ذاكرتي ذاكرة إنسان في جمجمة ضفدع. أنا ضفدع إنسي أو إنسي ضفدع. المؤكد مما أنا واقع فيه، أن التشوش بدأ يتأجج في رأسي وصرت غير قادر على التمييز بين حياتي الآدمية وهذه

الضفدعية. وبذكر التشويش ، من المحتمل أنه كان من فعل عابر السبيل أو الخماس أو هما معا. في حلم الطفولة الآدمية كنت أرى نفسي أحاول الطيران هربا من سيارة لا تنفك تطاردني وهي تنفث النار، حين أتذكر الآن هذا الحلم الذي كان يتكرر كثيرا، أتساءل إن لم يكن شريطا مدغوما لما جاء بعد تلك المرحلة من أحداث، وحاولت باستمرار فك الرموز المكونة له بالاستعانة بـ"تفسير الأحلام الكبير" لابن سيرين و"الماء والأحلام" و"شاعرية أحلام اليقظة" لباشلار و"النار والأثر" لرشيد الحامي"، إلا أني كنت دائما أصطدم بالتباس قاهر يحجب عني الحقائق أو المحتمل أن تكون حقائق.

طار بي الأزغب .. ها أنت تطير يا "المزغوب" . كنا نعرف أن الخنافس تأخذ الكريات إلى جحورها وتدحرجها في ممراتها المتشعبة. ربما تتغذى عليها خلال فصل الشتاء أو تطعمها صغارها. هذا كان يثير رعبي؛ فأنا بعد حين سأصبح غذاء لصغار الخنافس.

حط بي الأزغب في واد غير ذي زرع، ولم أحس إلا وهو يدحرجني، كما خمنت، في جحر ضيق بدأ يتسع، فوجدت نفسي

فجأة بعد سقطة غير مؤلمة، وسط ساحة فسيحة ومضاءة بما يكفي لتبين آثار قوائم قاطني المكان. رأيت من خلال الجزء الشفاف، بعد تمعن وتدقيق، عيونا تبحلق من ثنايا الجحور الصغيرة المنتشرة في جدران الساحة، وما إن رأت الخنافس الخنفس الضخم الأسود يلج من مدخل الجحر حتى انطلقت وكأنها كانت في عقال، وبدأت الحركة تدب في المكان، وعلت "الزنزنات"، واشتد الطنين. وكأنني علمت لغة هذه الكائنات استطعت التمييز بين الولولات والزغاريد والغناء والأهازيج. إنهم لا يختلفون عن الآدميين في احتفالاتهم، بل ذهبت بي البديهة حتى إلى التمييز بين الإناث والذكور من خلال الأصوات. فهمت وأدركت أنهم يحتفون بقدومي، لكن ما صفة هذا القدوم وهذا الاحتفاء؟ هل سأصبح طعاما لهذه الأفواه الفاغرة؟ لم يسبق لي أن رأيت خنافس بهذا الحجم. هذا يذكرني ببعض أفلام الرعب، وتلك الحشرات الضخمة التي تهجم على مدن بكاملها فتقضي على أهلها. ماذا سيحدث لي؟ كيف سأدافع عن نفسي وأنا سجين هذه الشرنقة ؟ فجأة بدأ القضم؛ هجمت أعداد من الخنافس على جدار الشرنقة وبدأت تقضم أطرافها. أصابني الغثيان وبدأت أتقيأ أحشائي. حين شقت أولى القوائم

الخنفسية متنفسا أمام فمي اندلق السائل الأصفر، وأطلقت صرخة مدوية اتسع على إثرها الشق ، ورددت الجدران والساحة صدى صرختي. حدث ذلك بسرعة لم تعهده الخنافس ربما، فجرت إلى جحورها. وجدت نفسي وحيدا مع رائحة المكان النتنة. وفكرت بأنه لابد لي من الخروج من هذا المكان. أخذت أشحذ بلساني لأوسع الشق . عادت العيون لتطل من ظلمة الجحور. حركت أطرافي بقوة فتكسر ما بقي من جدران الكرة التي كانت تحضنني. نفضت بقاياها من على جسدي. تقدم مني الخنفس الضخم وجلا. تردد في البداية فانطلقت الأصوات تشجعه بحسب ما وعيت. ارتفع الأزيز وعلا حتى لم أعد احتمله. بدأت الخنافس تخرج من الجحور، كونت دائرة حولي وأنا أراقب باندهاش، ثم بدأت تردد أزيزا متناغما تسرب إلى أطرافي خدرا ما رأيت ألذ منه وأجمل في حياتي الآدمية الماضية، فأحسست بالسكينة والارتخاء، ثم شيئا فشيئا عن لي ، ومن حيث لم أع، أن أرافقها بدوري، فرفعت صوتي وضممته إلى أصواتها، وأدركت بعد برهة أن ما كان يصدر عني ليس صوتا آدميا ولا نقيقا ضفدعيا، بل أزيزا خنفسيا، فغمرتني سعادة هي أقرب إلى السعادة المطلقة.

فصل في الممنوع والمستحب والمباح

"وإن تمكنت من رصنك اللوامة، وأحكمت لجامك، وطيحت بعقلك الجائحة، رحمك الله وكان في عونك، فعليك بماء الزهر الحر وماء الورد،

تخلطهما بخل التفاح مع قليل من مسحوق الشب

والزعفران البلدي، وتشرب من الخليط مقدار

"كأس حياتي" كلما هب في

أوصالك لظى الهوى

الفتاك."

لم أكن أعرف أن جحور الخنافس تمتد على هذا الطول. حملت على الظهر. لم أدر سببا لتصرف الخنافس ذاك. أخذوا يدورون بي في شوارع فسيحة، زينت جنباتها بالأعلام ولافتات مخربشة، لم أتمكن من فك رموزها. خنافس تقف على الجنبات تصدح بأزيزها في تناغم عجيب. لأول مرة أحببت هذه الأصوات. وضعت على محمل مزين بالفضلات. كان الموكب يتجه إلى مكان ما، حاولت التكهن به فلم أفلح. في مقدمة الموكب الذي شكل على هيئة سهم، الخنفس الذي جاء بي مزهوا يتبختر في مشيته، وقد زين ظهره الأملس بأزهار يابسة، وبعض أجزاء القواقع البحرية المختلفة الأشكال والألوان، يحمل خرقة بيضاء. إلى أين يذهب بي هؤلاء؟ خلف قناصي صف من أمثاله على هيئته وشكله. خمنت؛ ربما كان هؤلاء جنودا، فربما كان تنظيم الخنافس على شاكلة النمل والنحل؛ فقد لاحظت منذ البداية اختلافا في أشكالها، واستطعت التمييز بين الإناث والذكور، أي تمييزهم على أساس الجنس، أما تصنيفهم بحسب وظائفهم ، فذلك ما لم أستطع إليه سبيلا لحد الآن، على الأقل.

قلت لنفسي: ربما كان هؤلاء من الجن. لكن المعروف عن الجن أنهم يتلبسون بأجساد الحيوانات مثل الكلاب والقطط، أما الحشرات، والخنافس خاصة، فلا أظن. توقف الموكب أمام قصر فخيم، أو هكذا خيل لي، أو خمنت، تحف به الحدائق، أمام بابه الضخم وضعت مصطبة واسعة، صففت عليها الكراسي، يجلس على بعضها علية القوم. كانت أنظار الحشود متجهة إلى شرفة وتحيي. أمعنت النظر، فإذا مجموعة من الخنافس ترد على الهتافات بمناديل ملونة .

حملت إلى الخشبة، ووضعت على كرسي يتوسط الحاشية. أخذت، مذعورا، أجول بناظري بين الجالسين المزينة صدورهم بما يظهر أنها نياشين وأوسمة، هؤلاء ربما كانوا من الطبقة الحاكمة. في مقدمة المنصة، منصة أخرى أصغر زينت حاشيتها بالميكروفونات. تقدم أحد الجالسين، بدا عليه أنه خطيب، وبدأ يزنزن في مكبرات الصوت، والحشود تردف وقفاته وصمتاته بالتصفيق والهتاف. تقدم مني أحدهم، وهمس في أذني بلغة أفهمها ، أو هكذا خيل لي، وقد استبدت بي الحيرة، متسائلا؛ أمن هؤلاء من يفهم لغتنا؟ قال الخنفس موجها كلامه إلي بعد أن خفتت أصوات الجماهير:

– أتلقي كلمتك بالمناسبة أم ألقيها بدلك؟

قلبت كلمة "بدلك" هذه عدة مرات في ذهني. ما أعرفه هو أن التبادل ، بحسب معرفتي خاصية إنسانية، و"بدل" التي تعني في ظني "عوض" شغلتني إلى درجة نسيت الخنفس الرابض خلفي وهو ينتظر موافقتي على أحد خياريه. انتشلتني هسهسته مرة أخرى وهو ينتصب أمامي ملحا على طلبته، فأشرت أن يفعل ما يحلو له ويتركني. قال إنه المترجم الرسمي للقصر الملكي وقد تم تعيينه مصاحبا لي ، إلى أن أتعلم لغة أهل البلد. قلت:

– وما شأني ولغة مملكتكم؟ هل سأمكث عندكم طويلا حتى أجبر على تعلمها؟

– أنا موظف رسمي يا سيدي ولا يسمح لي بتجاوز صلاحياتي، وما كلفت به، أما إن شئت مصارحتك، فأنت الآن مواطن من الدرجة الأولى في مملكتنا، ويسرني أن أكون خادمك بعد جلالة الملكة.

أصبت بالدوار، ولم أسترجع بعض وعيي إلا بعد أن قدم لي المترجم كأس ماء بارد أنعشني.

قلت: من فضلك أنت الذي تفهم لغتي، ماذا تقصد بكوني مواطن من الدرجة الأولى؟

- لا تتسرع. قال. ستعرف كل شيء في حينه. أنا يا سيدي مكلف بالترجمة عنك وإليك، وبمرافقتك في حلك وترحالك، وبتلبية جميع رغباتك، إلى حين صدور أمر مولوي يلغي ذلك. أما الآن، وبعد ما شاهت من دهشتك، واستغرابك، وغياب وعيك، وحيرتك، وأنت معذور في ذلك لما ترسب لديكم أنتم بني البشر من تصورات خاطئة عن المخلوقات، فسأقوم بإلقاء كلمة باسمك باللغتين حتى تفهم أنت وتفهم جماهيرنا الغراء.

قال ذلك ثم قام خطيبا وأنا شبه غائب عن المكان والزمان، أتخبط في حيرتي، وأكاد لا أصدق ما يجري حولي، ناسيا ما كان من أمر مشروعي الذي سار نسيا منسيا إلى غير رجعة. وأنا على تلك الحال، إذ بأذرع تمتد إلي وتحملني، وأنا بين النوم واليقظة، أغالب التعب والنعاس الذي بدأ يطبق أجفاني، فاستسلمت للراحة استسلام رضيع بين يدي والدته تهدهده، وحين دب في جسدي دفء لم أتبينه إلا بعد لأي، وجدت نفسي عاريا إلا من تبان يستر عورتي في حوض ماء دافئ تمسدني أيد

برقة لم أعهدها، وتمرر الصابون على أطرافي حينا، وتدلك فروة رأسي حينا آخر والدغدغة تسري في جسمي.

دب الدفء في كل أطرافي، فبدأت أسترجع ما عن لي قبل آن، فأيقنت بأني لست في حلم، إنما الأمر لواقع؛ واقع صنعه لي غيري، وما علي إلا المسايرة، إلى أن يفضي بي إلى ما كان مقدرا علي، فحمدت الله بعد تخمين، وغمرتني الطمأنينة والزهو. على الأقل أنا الآن شخص مهم في مملكة حتى وإن كانت مملكة خنافس. داهمتني أحلام وردية، فبدأ ذلك العضو أبو الخطيئة ينتعض، وما كادت هامته تستقيم في انتفاخها واحمرارها، حتى امتدت إليه أيد ناعمة تداعبه بالصابون، تفركه فركا ما عهدت مثله ولو في أحلام شباب ولى غير مأسوف عليه، إلى أن وقع ما وقع.

حملت على الأذرع نفسها، وقد لف جسدي في الفوط النظيفة، إلى حجرة خاصة، وألبست أحسن الثياب، حتى أني استغربت وجود ثياب من كل لون ولكل جنس من مخلوقات الله. ضمخت أطرافي وعنقي وأسفل إبطي بأنواع الرياحين؛ ثلاث خنافس تقوم بخدمتي، عرفت من هيئتهن وحركاتهن أنهن إناث، وما أن وقر في ذهني كونهن كذلك حتى بدأت أتبين

حسنهن وبهاءهن. سمعت صوتا يهتف في أرجاء الحجرة. قال الصوت: هؤلاء من أجمل فتيات مملكتنا؛ الأولى التي تقف في الوسط ملكة جمال المملكة للموسم الحالي وهي الآنسة "ثعونيت"، والثانية التي على اليمين وصيفتها الآنسة "ثكورزيت"، وقد تربعت على كرسي الجمال الملكي لعقد تام، أما الثالثة على اليسار، فهي الآنسة "أيوديت"، وهي أيضا وصيفة، ومرشحة للتاج الجمالي للمسابقة السنوية للموسم المقبل، وهي أصغرهن سنا. إقامة مريحة وحظا سعيدا. آه! نسيت أن أنبهك سيدي إلى الأزرار الموجودة أعلى السرير، الزر الأزرق تضغط عليه كلما احتجت توضيحا حول أمر ما، الزر الأخضر مخصص للشاشة قبالتك، وهي من أجود الصناعات المحلية، أما الزر الأحمر، فخاص بالمستعجلات الطبية. ولن أنس تنبيهك سيدي إلى أن الزر الوردي خاص بأمور أخرى، فنحن لا نختلف عن بني جلدتك في ترميزه، إنه لون عام، فالوردية ليست خاصية إنسانية كما تدعون، بل أيضا...

انشغلت عن الصوت وتجاهلته، أظن انه ذكر الإنسانية هذه عدة مرات، كما فعل سالفه، فهو عارف إذا بإنسانيتي رغم أني أتلبس هيئة ضفدع. وقبل أن أتفوه لأستفسره، قال بصوت

رخيم: ليلة سعيدة وأحلام لذيذة . ثم انقطع الصوت، وبدأت خشخشة المكبر في الهسهسة إلى أن خبت ثم همدت، فعرفت انه ربما يراقبني من مكان خفي، أو بواسطة جهاز مثبت في الحجرة. قلت في نفسي: لا يهم أتمتع على الأقل بما أنا فيه، وليقم هو بعمله كما يراه . دخل في تصوري أن النعمة لابد زائلة، وعودتي إلى الحالة الأصلية واقعة لا مفر منها ولا ريب؛ فهذان اللذان يتلاعبان بتوهماتي لا شك سيحاولان تنغيص حالة الصفاء هذه، إذا فلأستغل هذه اللحظات إلى أبعد مدى، حتى وإن كانت الطبيعة، كما هو مترسب في جمجمتي ، تأبى بعض ما نويت عليه.

أخذت أنط فوق السرير، ومنه إلى الأرض، ومنها إليه ثم عليه، سحبت الوسطى وداعبتها إلى أن جرى ريقها واختلط بريقي، وسحبت الوصيفة اليمنى، ولاعبتها بمثل ما فعلت مع الأولى وأكثر، وليكن -خمنت بعد ذلك- ما يكون، ثم جرجرت الثالثة، وفعلت معها الشيء نفسه وعينه وزدت إلى أن اختلطت علي الأمور، وانقلبت علي الأوضاع، وما دريت بعدها ما فعلت وقد جف دماغي، إلى أن أصبح الصباح، فاستسلمت لنوم خاتر مباح.

فصل في مرضاة المطمئنة

"وفي مرضاة المطمئنة مرضاة لله عز وجل، وهي لا تسلم القياد

إلا ساعة اجتناب الزلة، وانكشاف الغمة،

واجتماع صلاح الرأي بطيب

القصد، وحسن النية،

والسلام"

كان الجو حارا. أشعة الشمس الحارقة تحجب عني الرؤية. الملوحة تملأ المسام والفضاء. كنت أحاول التخلص من شيء مشدود إلى ظهري فلا أستطيع. أصوات تأتي من أعلى التلة؛ أخالها أحيانا تشجع، وأخالها أخرى تسخر. لم أعرف يقينا بعد ذلك أو حتى قبله، ما حدث أو ما سيحدث، تداخلت الأزمنة والأمكنة ، ليس لأني أصبت بخلل في دماغي، ولكن لأن خصاما ، أستطيع أن أقول ، وقع بين الشركاء، أو سوء تفاهم نتج عنه ضياع جزء من الحكاية، أو توقف ما لغرض مقصود.

لم أدر كم مر علي من الزمن وأنا قابع في عزلتي ، ورأسي الجامد متكلس عن إيجاد حل ما يرضي الجميع بدءا بنفسي ، إلى أن فوجئت يوما ، وقد ساخ بي ظني وحاد عن جادة الصواب، بدافع قوي يحفزني على إعادة الكرة، أو على الأقل تقديم طلب في الموضوع، وأي موضوع؟ وهل يمكن تقديم طلب لعيش حياة ثانية؟

كان همي فهم طبيعتي الخابية، والسؤال الذي لا ينفك يطرق بمطرقته الحديدية في ناحية من جمجمتي: لماذا تخلى عني الشريكين وسط الطريق؟ وبما أني أقررت بعجزي عن القيام بما كان يمكن القيام به، فقد همت أتسول بصيصا من أمل ونور ينقذني مما أنا فيه، ولم أكن بعد قد استفقت من هول صدمة لبوس الكائنات، وبخاصة أحطها. وبصراحة أضيف باني أضعت بوصلة خلاصي بين تيه الأزمنة والأمكنة والكيانات. فوجئت بشخص يتحلق حوله جماعة من الناس، أو كما خيل لي، يحكي عن أحداث وقعت في زمن غابر، وهم من حوله يستزيدون ويضيفون ويحسنون ويقبحون. أقعيت وسطهم على الصفة التي كنتها، فما كان من الرجل حين لمحني إلا أن أشار نحوي، فامتدت إلي الأيدي والألسن بما لم ألقفه كأنها ألسنة لهب تتلظى، فاستوثقتهم الأمان بشهادة اثني عشر نفرا منهم على الكتمان آن الزلل، وإن زنم اللسان، وشرد التوهم، وتسلل مني المخيال إلى متم الحول حتى سلمت مني المهجة، وكان ما كان، كما رويته عن ذلك الكسيح، على النحو الذي أنقله لكم بكل الأمانة التي لقنتها، مع التنبيه إلى عدم ربط اللاحق بالسابق لانفراط عقد الشراكة المذكور في مستهل هذا الكلام، مع

الشريكين الناكرين للجميل؛ الخماس وعابر سبيل، ثم إن الأحداث اللاحقة حدثت في زمن آخر غير العهد القديم مما سينعكس إيجابا على حرية التعبير بحسب الطلبات الواردة علينا من كل الجهات؛ وهي جهات عليا وأخرى دنيا، وخلاصتها ومحصلتها تجدونها في ما سيأتي من الخبل، وها أنا أنقلها وما أنا إلا ناقل أخبار أو أخباري مشاء بكثير من الغيبة وبعض النميمة.

قال الأخباري المخبر بـ"نا" الدالة عليه: "الذي حدث بالفعل، هو أن الضفدع السابق أو هيئته كما فهمت، حاول خداعنا والضحك على ذقوننا؛ ففي الحقيقة لم يلق من المعاملة إلا أسوأها، وإن حاول إيهامنا بغير ذلك بغرض التدليس، وله في ذلك عذر سجناء الحرب، وما ينتظره أشد وأقسى. أما ضمير المتكلم الذي تقمصه لإيهامنا بواقعية سيرته العجيبة، فلم يكن إلا تملصا وادعاء وتعريضا بالخلقة الآدمية الكريمة؛ إذ كيف يعقل أن يتحول آدمي بلحمه وعظمه ودمه وشخصه وهيئته إلى ضفدع، ثم بعد ذلك، وكما سيود في الآتي، خنفساء؟ أما ادعاء كونه معتقل رأي، فلا أظن إلا انه يتمسح من أجل الحصول على وظيفة أو تعويض عن ضرر لم يلحقه بعد ما شاع من أخبار. أما هل كان يرغب في الإنصاف، ونحن منه براء، أو في التعويض،

ونحن نجهل قدره، أو في المصالحة أو المسامحة أو المعادلة أو المشاكلة أو المهالكة أو غيرها، فالله أعلم. أما الحقيقة أيها السادة، كما حدثت بالفعل فهي على النحو الآتي:

قال: لما توالت علي الخيبات من كل حدب وصوب، ونهشت خاطري التكلسات والتورمات عرمرما، طلبت الهيام على وجهي أبغي غير ما أنا عليه؛ من مقام موبوء، ونكد عبج بصيص أمل كنت أحتفظ به للنائبات لدهر، وتكالب لمصائب أبت مفارقة "جرتي" . قلت: ما لي وهذا المقام، فلأجرب غيره. وهذا ما جرى؛ إذ خرجت ذات نبوت فجر من غير زاد ولا رحل ولا وجهة ولا غاية، لا أبغي غير التخلص مما سبق، آكل من خشاش الأرض ما استطبت لا أتجاوز في ذلك سد الرمق ومراوغة قرقرة البطن، إلى أن جن علي جنون الليل وأنا وسط غابة، فاتخذت لي مكانا قصيا مطرحا، ومن يباس عرعارة مفرشا، واستسلمت لنوم عمقه الوكد وسعة الخاطر وراحة البال وكلل المسير، إلى أن استيقظت على الحال التي أنا مقبل على وصفها وقد عرفتم مستهلها في ما سبق.

كانت الشمس اللافحة تلهب جمجمتي، وتذيب الشحم الذي راكمته أيام رغد ولت ، وكم كنت أتمنى في حياتي تلك أن انظم بعض الأمور، وبما أن ذلك لم يكن يتجاوز الأماني، فقد كنت أمرح في تخطيطي، فأقتنص من بين ذلك الزمن سويعات لممارسة بعض التمارين الرياضية للحفاظ على رشاقة خلتها قائمة بسبب العنت، ولم أدر أنها غادرتني، وقد قرأت يوما في إحدى الصحف المخصصة للطب البديل أهمية التنظيم وممارسة الرياضة، إلى أن جد جد التجربة، ففقهت غروري، وانتكست ألومني على مضيعة الوقت، وعدت إلى عوادي أيامي بعد أن ضربت بـ"الماكرو بيوتيك" عرض الحائط، مستسلما إلى أن تقلب الأحوال كفيل بتعديل الأمور، وذلك ما حدث.

كنت أخالني مشدودا إلى عمود، أو حاملا كرة نارية كبيرة، أحاول زحزحتها عن موضعها بجهد جهيد، والنفس تكاد تخرج فلا أستطيع. الأصوات تأتيني من بعيد على غير ما ألفت. أحاول فتح عيني لأتبين الأشياء، فيتسرب العرق المالح إليهما ويمنعني من فتحهما، بالإضافة إلى الأشعة. تأكد لي أنني مربوط إلى عمود، والعمود في مكان لم أتبين تضاريسه، وبشكل مواجه للشمس. حلقي جاف، إلى درجة كنت أجد صعوبة في

تحريك لساني أو بلع ريقي. وعيت أنه علي استعمال أذني علني أفقه بعض ما يدور حولي. أطرافي بدأت تتنمل، بدأ الدبيب أول ما بدأ من قدمي، وكان ذلك مألوفا عندي في فترات سابقة، ولكي أنسى بعض ما أنا فيه طفقت أعقد بعض المقارنات. كانت أطرافي تتنمل حين كنت أطيل الاضطجاع على جنبي الأيسر ، وأنا أتابع برامج التلفاز، أو شريط مطول في إحدى القنوات، أو حين كنت أنام كثيرا على هذه الجهة لأن زوجتي ترفض تغيير الأوضاع، ولا حتى قلب الفراش، وبما أني كنت أثقل، فقد تكونت في الموضع الذي أرقد فيه حفرة على شكل علامة استفهام هي الهيئة التي أنام عليها. ولا أخفي أن هناك ، في ما يخص النوم على الجنب الأيسر، أسبابا أخرى منها ما هو خاص وما هو خاص جدا وما هو عام .

يعود عامه إلى مشكلة السكن الجماعي؛ إذ كنا نكتري نحن مجموعة من الأسر السعيدة شقة واحدة، فنقتسم أرضيتها ومرافقها بالأشبار، حتى أنه كنا كلما تغير ساكن أو غادر وعوضه آخر، إلا وقمنا بعقد جمع عام نضطر خلاله إلى وضع قوانين جديدة تخص التناوب على المرحاض، وتنظيف باحة الشقة وجزء من سلمها. وبالمناسبة اضطرتنا هذه الحياة الجماعية

إلى تكوين جمعية لم نجدد مكتبها منذ بدأت السلطات تطالب أعضاء مكاتب الجمعيات بوثيقة السجل العدلي، لأن سجلات معظمنا لم تكن خالية من السوابق. المهم أطلقنا على جمعيتنا "جمعية قاطني الشقة رقم 13 للتضامن والتنمية"، وانخرطنا في شبكة جمعيات ساكني العمارة التي بدورها انخرطت في التنسيقية الوطنية لمحاربة السكن غير اللائق والتنسيقية الوطنية للأسر السعيدة، ثم الفيدرالية الدولية من أجل بيئة نظيفة.

أما خاصه، فيخص حالة الأسرة المكونة من خمسة أفراد؛ ثلاثة أبناء تجاوز بكرهم العشرين وأنا والحرم المصون. وقد قسمنا المساحة التي نحتلها من الحجرة الخاصة بقسمتنا إلى مجموعة مناطق مرقمة يحتاج الانتقال بينها إلى ترخيص.

أما الخاص جدا؛ وهنا مكمن الداء الذي أورث أطرافي التنمل المزمن، فمحصلة الحديث عنه الآتي: تعودنا نحن قاطني المنطقة باء، بعد تمارين وتكوين وإعادة تكوين وتكوين مستمر، الذي تشرف عليه جمعيتنا بمساعدة خبراء من جمعيات داخلية وخارجية صونا لعدم تفكك الأسر والتكيف مع الأوضاع، ننام على هيئة واحدة ، وفي وضعنا نحن، وبناء على نتائج القرعة،

كان من نصيبنا، أنا والحرم المصون، النوم على الجهة اليسرى، وبما أني كنت الأثقل، كما أسلفت، فقد حزت في السرير حفرة هي حصيلة عقدين من المعاشرة الزوجية والعمل الدؤوب على التموضع، بحسب الحاجة، حتى صارت الألفة تمنع علي النوم على غير هذا الوضع. وقد سبب لنا هذا الأمر بعض الخصومات لأني كنت اعترض دائما وباستمرار على رغبة زوجتي في قلب الفراش. كنت أقف لها بالمرصاد لما استحليته مما نتج عن هذا الوضع من قضاء مآرب أخرى، لا حياء في الدين، وأضيف إلى علمكم أنه أثناء قضاء الحاجة الحلال، نكون ملزمين بمراقبة الأبناء بالتناوب تحسبا لأي تجسس أو تلصص محتمل، فقد حدث مرات أن اكتشفنا تصرفات من هذا النوع.

بدأ التنمل يمتد إلى باقي جسدي المثقل بالرباط الخشن، عرفت أخيرا أني مربوط إلى سارية، تخترق جسمي بين الفينة والأخرى أشياء تبينتها بعد لأي، كانت سهاما يوجهها إلي رماية مجموعة من الخنافس الصغيرة وهي تلهو بذلك. تمنيت لو أن أحدهم مدني بقطرة ماء أبلل بها حلقي، صارت قطرة الماء تلك كل مدار تفكيري وأعز ما يطلب، تذكرت ذلك الوادي بخرير مياهه الصافية، وغصة الحلق وألمه وتشقق اللسان والشفتين.

ما إن كان يظهر لنا الوادي حتى نتسابق مسرعين ، ونحن ننزع ثيابنا الخفيفة، ولا نصل إلى مجرى الماء، حتى نكون قد تخلصنا من كل شيء إلا من جلودنا، نتقافز في البرك، ولا نتذكر سراويلنا إلا حين تميل الشمس إلى المغيب، نعود أدراجنا، نلتقط قمصاننا وسراويلنا المنتشرة على جنبي الطريق المتربة ضاحكين. كانت هذه الذكرى كافية لأن تجعلني أرتوي من غير ماء. أحسست بشيء صلب يصطدم بجبهتي ، نتج عنه انفجار ناري في قحفي أفقدني كل إحساس بالوجود.

لم أدر كم بقيت على تلك الحال، إلى أن استفقت على لسعات حادة رغم أني كنت فاقد الإحساس بجسمي، كان الظلام الدامس يحجب عني كل رؤية، ونسمات باردة تهب فأفتح فمي لتلامس لساني الجاف كقطعة خشب تمنع عني الهواء . فتحت عيني ، فرأيت أشباحا تتحرك، ثم اقترب مني أحدها وفك قيدي بخنجر، وطلب مني السير خلفه، ولما تبين له ضعفي وعدم قدرتي على المشي، أشار إلى أحدهم فحملت، وبعد مسافة، وجدنا مجموعة أخرى من الأشباح في الانتظار عند سفح ربوة، وضعت على عجلة أو عربة كما سأتأكد في ما بعد، كانت للعربة أربع بكرات كبيرة عليها شبه قبة تسندها قضبان

خشب مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيقة. لما ابتعدنا مسافة أخبرت بأن هجوما حدث ليلة الإسراء بي على مستعمرتنا، أي مضيفي، من قبل خنافس أعداء أسروا منهم خلقا كثيرا، وأن المقاومين تمكنوا من تحرير جلهم في غارة ليلتهم تلك.

أمضيت أكثر من أسبوع وأنا طريح الفراش، إلى أن شفيت من كل الجروح، إلا ما لحق إحدى قوائمي من تلف، ورغم عرجي الواضح، فقد كنت أستطيع القيام بكل أموري، زيادة على الاستعدادات والتدريبات التي كنا نخضع لها نحن مجموعة ممن وقع عليهم الاختيار للقيام بعملية قتالية لتحرير إحدى أميرات مستعمرتنا التي بقيت في الأسر. لقد صرت مواطنا خنفسا كامل الخنفسية، ولا أرى داع لسرد أحداث ذلك التحول ووقائعه، رغم أني أجهل متى تم ذلك، إلا ما انتبهت إليه بعد تحريري من الأسر. وما أتذكره بالضبط، هو تلك الاختبارات التطبيقية التي اجتزتها بنجاح ، ومنها جلب كريات ضخمة من فضلات بشرية إلى المدينة، والطيران لمسافة وعلو ومدة تتجاوز القدرات الخنفسية العادية، وسرعة البديهة في المناورة والانفلات من مناقير الطيور الجارحة وغير الجارحة،

والغطس في الماء لمدد غير محدودة، وقوة مقاومة الأعاصير والرياح، والصبر على الجوع والعطش وغير ذلك.

تم اختيار أقوى الخنافس لتخضع للتدريب الشاق بهدف تحرير أميرتنا، ووعدنا بالعطاء الجزيل وبعض الإقطاعات. كنت متأكدا رغم عرجي بنجاح عمليتنا، بعد ما شاهدت من هشاشة تحصينات الأعداء، فنجاح العملية التي قاموا بها ضدنا كانت بسبب عنصر المفاجأة.

بعد تدريب امتد لشهرين منحنا مدربنا أسبوعا كاملا للاستروواح والترفيه عن النفس، وبطاقات خاصة لشراء كل ما نحتاج إليه وما نرغب فيه من أسواق المستعمرة ودكاكينها، والتمتع بخيرات البلاد، ودخول جميع الأمكنة باستثناء القصور الملكية التي تحتاج إلى ترخيص خاص، واصطحاب أجمل الخنفوسات، ولا أحد بمكنته الاعتراض على تصرفاتنا، ومع ذلك لم نتجاوز الحدود لأن المجموعة كانت منضبطة .

في اليوم الموعود، منحنا خرائط وأسلحة ومواد غذائية كافية، وهواتف خاصة ومناظير ليلية، فخرجنا من المستعمرة

تحت جنح الظلام سرا، حتى لا يتمكن عملاء الأعداء ومخبريهم من تربص خطواتنا وكشف مهمتنا.

كانت الخطة تقضي بعدم التسلل عبر الحدود الجنوبية وعدم استعمال الأسلحة النارية إلا عند الضرورة، وعدم الاستسلام مهما كلف الأمر، تجنبا لأي معرفة محتملة للأعداء بالمهمة، وحفاظا على روح الأميرة.

جمعنا قائدنا، بعد أن قطعنا مسافة واقتربنا من حدود الأعداء، في دغل، وفرش أمامنا خريطته، وأمرنا بالحذو حذوه. قال مشيرا إلى نقطة على الخريطة: نوجد الآن في هذه النقطة. ركزوا معي جيدا. بعد قليل سنتخلص من هذه الخرائط تجنبا لكل احتمال سقوطها في أيدي العداء. وبعد عشرين دقيقة، أي مع الغروب تماما سننطلق متفرقين عبر هذه الأسهم. أترون هذه النقطة السوداء والأسهم الحمراء؟ سنلتقي بعد خمس ساعات عند النقطة الخضراء هنا. انظروا إلى خرائطكم واحفظوها جيدا. عليكم نقش كل شيء في أدمغتكم. النقطة الخضراء عبارة عن كوخ لأحد عملائنا، وهو سيقوم بتوفير كل الاحتياجات وفي علمه ساعة وصولنا. وتجنبا لأي خطر، مع احتمال أن يكون

عميلا مزدوجا أو ربما متعاونا مع أعدائنا، فهو يجهل بعض الأمور. سأسبقكم بعشر دقائق درءا لهذا الاحتمال، فإذا ما لاحظ أحدكم تحركا مشبوها عليه بإعلام الآخرين بواسطة الرنين المتفق عليه. تقتضي مهمتي أن أقوم بمسح المنطقة قبلكم، ولا تنسوا الخطة البديلة؛ هذه النقطة الزرقاء، هنا على اليمين، والمكان عبارة عن غار يدعى "غار الحمار"، وقد رتبت فيه كل وسائل الراحة منذ زمن، وجهزته بكل ما ستحتاجون إليه، وكل من سبق عليه إخبار الآخرين بواسطة الرنين المزدوج. تذكروا جيدا، عليكم أخذ جميع الاحتياطات. والآن عليكم أن تقوموا بمضغ هذه الخرائط وابتلاعها ، ولن نقوم بأي خطوة أخرى حتى أتأكد من ذلك.

بدأنا في القيام بما أمرنا به، وحين انتهينا، طلب منا القائد أن نضبط ساعاتنا على الخامسة ليبدأ العد العكسي. قال: انتم تعرفون الآن ما عليكم القيام به، سأنطلق، وبعد عشر دقائق تنطلقون أنتم بحسب المتفق. ربت على أكتافنا الواحد تلو الآخر ، ثم أسرع زاحفا على الأرض في اتجاه أسلاك الحدود. بعد مضي عشر دقائق انطلق كل منا في الاتجاه المرسوم له.

كان نصيبي من سبيلي المسهوم ، مسافات طويلة مغطات بالأحراش، فكان علي أن أتجنب إحداث أي صوت أو تحريك الأغصان أو الأوراق أو الوطء على اليابس منها. على مسافة من السياج السلكي بدأت أحفر بكل ما أوتيت من قوة بقوائمي وقواطعي، وحين بلغت أسفل السياج مباشرة كما خمنت، صادفتني عروق شجرة "تين الكلب" المعروفة بكثرة عروقها وتشعبها، أخذ مني فتح ممر آخر بعض الوقت، فكرت في الطيران لكن عدلت عن ذلك تجنبا لأي خروج عن التعليمات.

أعرف بأن هناك عيونا تراقب المكان ومستعدة للتحرك مع أدنى نأمة. وبعد أن أيقنت بابتعادي لمسافة كافية استعنت بالنط والطيران لمسافات متقطعة أقف بعدها لأتأكد من عدم رصدي. لما اقتربت من النقطة الخضراء، وتبين لي الكوخ والتلة، لبثت بين الصخور انتظر إشارة القائد بواسطة الرنين المتفق عليه، ورغم أني لم ألحظ ما يوجب الارتياب، فإن الرنين المزدوج الذي توصلت به دفعني إلى تغيير الاتجاه إلى النقطة البديلة الزرقاء أي "غار الحمار". أسرعت بإخبار الآخرين بالمستجد، وتوجهت إلى المكان المعلوم.

أستطيع القول بأن الإحساس بالموت يختلف من شخص لآخر، ومهما حاول فرد ما أن يدعي الشجاعة، فإن هذه الأخيرة تخونه في كثير من الأحيان، خاصة عندما يتأكد له بأن التهديد جدي، وأكاد أجزم بأنه في لحظة ما، تتساوى الحياة والموت، حين يجد الواحد منا نفسه لا هو حي ولا هو ميت، أو حين يتأكد له بأنه ميت لا محالة؛ فمن الأفراد من يضعف ويسارع إلى التضرع والتذلل والخضوع المطلق ومقايضة دقائقه الأخيرة بأي شيء، ومنهم من لا يعير الأمر اهتماما حين يتأكد له أنه لا مفر من الثاني ويستسلم استسلام قربان، ونحن نعلم بأن التاريخ يحفل بهذه النماذج، وأقصد طبعا التاريخ البشري، لأني وإن حدث لي ما حدث لا زلت محتفظا بجيناتي البشرية ، وهذا سر تفوقي في عالم الخنافس. ومنهم وأقصد البشر دائما، من لا يستسلم وإن كان على يقين من موته، يواجهه بشجاعة وزاده إيمانه بقضيته ، وبما أني كنت إنسيا في صورة الخنفس الذي أحمل قشوره، فقد كنت متأرجحا بين هذه النماذج، رغم أن الوقت لم يكن يسمح لي بالاختيار، إلا أن السرعة التي جرت فيها الأحداث التي سأحكيها لاحقا ، ورد الفعل الطبيعي الذي ينم عن شخصي وطبعي الخاص بالإضافة إلى جمعي بين الإنسية

والخنفسية، كانتا في غير المسار الذي كنت سأرتضيه في مقام غير الذي وجدت فيه، والموقف الذي فرض ما فرض، في سبيل قضية اعتبرناها مجموعين في الدار الخنفسية قضية وطنية مقدسة توجب التضحية بالغالي والنفيس؛ فما إن أحسست بالخطر يحدق بي وأنا أعبر دغلا، حتى أسرعت أخبر الأصدقاء قبل أي تصرف آخر أنشد فيه نجاتي الخاصة رغم أني كنت متيقنا بأنهم قريبون جدا من المكان ، ومتأكدا من توصلهم بالرسالة المشفرة التي كان القائد قد أرسلها لي. وجدت نفسي في لحظة محاطا بمجموعة من الأعداء، لم أتبين عددهم، وهو يصوبون رشاشاتهم نحوي. توقفت مستغلا الظلام للتخلص من كل ما من شانه أن يرشدهم إلى الآخرين، وبخاصة الهاتف الذي ضغطت عليه بقدمي إلى أن غاب في التراب، وكان من حسن حضي وقوفي على أرض هشة، وبسرعة هيأت سلاحي الناري الذي كان من النوع الجيد، مستعدا لقتل أكبر عدد من المحيطين بي قبل أن أردى مقتولا، وفي لحظة لم أقدرها بالزمن، انطلق الرصاص في كل الجهات قفزت إلى أقرب صخرة وسلاحي لا يكف عن نفث بصاقه الناري، وتدحرجت خلفها إلى أن وجدتني في حفرة تصلح لحمايتي، أثناء ذلك أحسست بوخز

حاد في ذراعي اليسرى وبسائل حار يندفع ليغطي وجهي، عرفت أن رصاصة اخترقتني في هذا الجانب، ومع ذلك لم أتوقف عن الضغط عن زناد رشاشي الخفيف، ولم تمر إلا دقائق حتى هدأت النيران وعمت رائحة الرصاص في المكان وساد صمت كصمت القبور، وعلى بعد خطوات مني وفي المكان الذي كنت أقف فيه آن محاصرتي، سمعت رنين هاتفي، زحفت وأنا أدير محجري في جميع الاتجاهات، إلى أن بلغت المكان، أخذت الهاتف بحذر شديد، وأجبت عن الرنين بشبهه، فتأكد لي وجود الرفاق قريبا من المكان، فعرفت أنهم شاركوني في العملية، ولما تأكد لي ولهم زوال الخطر، برزوا من الظلام. تقدم مني أحدهم بعد ما تأكد له جرحي، طمأنته، وطلبت منهم الإسراع قبل انكشاف أمرنا بعد ما حدث من إطلاق الرصاص.

وجدنا القائد في انتظارنا بالغار المعلوم، كان بادي الحنق، فقد تأكد له بأن العميل تمت تصفيته بعد الاشتباه فيه وانكشاف جزء من المخطط. طلب منا الإدلاء بملاحظاتنا قبل فوات الأوان، فطفق بعضنا يحثه على التراجع، في حين أصررت على إتمام المهمة، لأن التراجع سيأخذ منا أياما وربما شهورا ولا ندري ماذا سيحدث خلال هذه المدة لأميرتنا، وكيف هي حالها

في الوقت الحالي، أقنعت القائد بأن الأعداء سيقومون بمسح للمنطقة القريبة من الحدود، وحتى نتجنب الوقوع بين أيديهم علينا التقدم في أرضهم إلى مسافة لا تثير الشبهة، وحين لن يجدونا سيتأكد لهم تراجعنا، وربما اختبأنا لأطول مدة ممكنة حتى يذهب بهم الظن هذا المذهب، آنئذ سنواصل عمليتنا ، وما علينا إلا أن نصبر قليلا على نفاذ الزاد، والأساس هو الرصاص الذي ربما احتجناه لما سيأتي، واقترحت أيضا اقتراحا آخر، فنحن البشر غالبا ما نقول في مثل هذه المواقف "ضرب الحديد ما حدو سخون"، وفسرت للجماعة أنه يمكن الاستمرار في العملية والتوجه مباشرة إلى قلب الأعداء لتوجيه ضربة موجعة لهم لأن اهتمامهم سيتركز على الحدود، وكل قواتهم ستوجه إلى مسح المنطقة، مما سيسمح لنا بالتسرب إلى معسكراتهم، والمعتقل الذي توجد به الأميرة وباقي مواطنينا.

بعد تفكير قصير استفتى القائد الرفاق ففوضوا له الأمر، فبادرني مطالبا إياي بوضع خطة واضحة قابلة للتنفيذ.

كنا نصادف مجموعات من الجنود يتقدمون نحو الحدود، فنختبئ إلى حين مرورهم، إلى أن بلغنا أسوار المعسكر حيث

المعتقل العسكري. وضعنا خطة ميدانية تقضي بالاقتحام المباشر من الباب الرئيس، واستغلال عنصري المفاجأة والسرعة، ثم التوجه شمالا تجنبا لمصادفة الكتائب التي تقوم بالتحرك باستمرار أمام حدودنا، ومن هناك نتسلل عبر حدود جيراننا الخنافس الحمراء التي تربطنا وإياهم اتفاقيات صداقة وحسن الجوار. وذكر قائدنا وجود مجموعة من الممرات كانت تستعمل في السابق لتهريب الأسلحة والمواد الغذائية، وأشار إلى وجود أنفاق أيضا بعضها يمكن أن يكون صالحا للمرور. كان ذلك أفضل من العبور المكشوف عبر الممرات.

انقسمنا إلى ثلاث مجموعات؛ تتسرب المجموعة الأولى إلى الداخل لتحرير المحتجزين، في حين تتكلف المجموعة الثانية بالتغطية إن اقتضى الأمر تدخلا، باحتلال مواقع استراتيجية بحيث تكون ساحة المعقل ومرافقه مكشوفة لديها دون أن تكون معرضة لنيران القناصة، أما المجموعة الثالثة فكانت مهمتها تصفية الحراس بالأسلحة البيضاء وتامين المنطقة المحيطة بالمعقل تجنبا لهجوم معاكس مباغت. حددنا مهلة التنفيذ في خمس عشرة دقيقة. ثم انطلقنا، فما إن تم تنفيذ أولى الخطوات بتصفية الحراس حتى تسللنا نحن أفراد الفرقة الأولى إلى الداخل، وتوجهنا تحت

ظلال المباني نشق الظلام إلى النقطة التي كان قد حددها عميلنا المغتال لقائدنا. فجأة اِنطلق أزيز الرصاص يمزق هدوء المكان بين مجموعتينا والحراس الذين هبوا من الداخل لنجدة زملائهم. عبرنا الباب الرئيس للمبنى، وتوزعنا نكسر الأقفال والأبواب، ونطعن بحراب رشاشاتنا كل من صادفناه إلى أن بلغنا بابا حديديا ضخما. كانت الصرخات والأنات تنبعث من داخله فعرفنا أن المكان عبارة عن زنزانة. تكلف رفيقان بتكسير مفاتيحه وانطلقت مع القائد نبحث عن بغيتنا.

ظهر لنا مكتب في آخر الممر، فاتجهنا نحوه، وما إن رفص القائد بابه حتى انبعث منه وابل من الرصاص، أخرجت قنبلة غاز، قدحت مكبسها ورميتها عبر الزجاج. انتظرنا بعض ثوان، فإذا بضابطين يخرجان وهما يصرخان بالاستسلام رافعين أيديهما، أمسكت أنا بأحدهما، وأمسك القائد بالآخر، ودفعناهما إلى زاوية، فبدأ القائد يستجوبهما في حين تكلفت أنا بالحراسة. أشار رئيس المعقل إلى حجرة بإحدى زوايا المبنى. نظر إلي القائد نظرة وعيت معناها، فهوينا على رأسي الشخصين بماسورتي سلاحينا، فسقطا صريعين على إسفلت الممر. تقدمنا من باب الحجرة، سبقني القائد إلى رفسه فإذا بمجموعة من إناث

مستعمرتنا يندفعن تجاهنا وهن يصرخن، عرف القائد الأميرة، طمأنها، وطلب من المجموعة مصاحبتنا، تقدم هو وتأخرت أنا أحمي مؤخرتهم. لم تمض إلا دقائق حتى كنا خارج المبنى، نقطع الأحراش نحو الحدود.

اتصل القائد بالقيادة المركزية يخبرها بموقعنا، وبنجاح العملية. وما إن اقتربنا بمسافة قصيرة عن موقع الحدود، حتى أشار إلى باب نفق مموه وسط دغل. أزاح عنه الأعشاب الجافة، وتقدم بمصباحه، تبعناه، وبقيت مجموعة كلفت بحراسة المدخل احتياطا. على الجهة الأخرى، وجدنا مجموعة من الجنود بانتظارنا، لما رأونا أدوا التحية العسكرية، وانطلقوا يقدمون المساعدات المستعجلة للمحررين.

كتاب البرج
ومسالك الرغبة

لم يكن ما سبق إلا مقدمة لما سيأتي، كان القائمون على مسخي يخططون، وكنت أداة تنفيذ. لم تكن رغبتهم الانتقال بي من كائن إلى كائن بغية التلهي والتسلي، بل كان ذلك مجرد تمويه، ورغبة في صوب مخزون الذات، للدفع بي إلى الموضوع الرئيس، موضوع ذلك الصديق الذي اختفى في ظروف غامضة، فما إن تمت العملية السابقة بنجاح، حتى انقطع حبل الأحداث، فسقطت في تيه غير مسبوق، ودُفِعَ بي في مسالك شتى، ووزعت ونثرت شذر مذر. كان ذهني كأنه أصيب بصدمات كهربائية منعته من التركيز، وصهصهت به، فطفقت أستجمع بعض الشوارد، وأرتبها بحسب التخمين.

قام القائد من مكانه ، اتجه صوب دولاب في أقصى القاعة، سحب منه كيسا بلاستيكيا، عرف عبد السلام أنه الكيس الذي وجد إلى جانب جثة الشاطئ، وضعه فوق المكتب وقال:

- أنت أيها الصديق من سيفك لغز هذا الكيس.

- أظن أن الدرك يضم بين صفوفه خبراء في كل المجالات. فأنا لم أخضع لأي تكوين لا ميداني ولا نظري في أمور الجريمة، فكيف يا سيدي تكلفني بمهمة بهذه الدرجة من الخطورة.

- ليس المطلوب منك أن تفك لغز الجريمة، أو تبحث في هذا الجانب. أنت ستتكفل بهذه فقط، والدافع إلى ذلك ليس تكليفا يفوق الطاقات، وإنما خوفا؛ فالجوانب التي ستهتم أنت بها لن يهتم بها خبير متخصص في قضايا الجريمة ، هناك أشياء سيهملها هؤلاء، وربما كانت لها أهمية على الأقل. ربما سيؤدي عمل هؤلاء إلى ضياعها. هذه مخطوطات كما اتضح لي، وأنت صاحب اهتمام، وتتوفر على تكوين علمي، ربما كان هو الأنفع لنا في ما يخص هذا الجانب، ألم يسبق لك أن قمت

بتحقيق مخطوط؟ ثم لا أخفيك.. يخامرني إحساس غامض بأن الأمر يتعلق بما هو أكبر من جريمة عادية أو غرق أو هجرة. فيم كانت ستنفع هذه الوثائق شخصا يسعى إلى عبور البحر للبحث عن لقمة العيش، ما دام الجميع يكادون يجمعون على أن الميت "حراك" لفظته أموج البحر، وتقرير الطبيب الشرعي يؤكد هذا الافتراض، لأنه لا أثر لأي عنف على الجثة. ومن جانب آخر أنت تعوزك الصلاحيات للتصرف، وما دام عملك يقتصر على الاستخبار، فأنا أكلفك بهذا العمل. ولا أخفيك أيضا أن خوفي على ضياعها دافع آخر منعني من التفريط فيها.

- شكرا سيدي على ثقتكم في شخصي المتواضع. لكن حبذا لو أنكم زودتموني ببعض المعلومات، أو حتى إذا كان ممكنا، بنسخة من محضر الدرك، ونسخة من تقرير الطبيب الشرعي، ونتائج البحث، فربما ساعدني ذلك في أولى خطواتي.

- سيكون لك ما تشاء في فرصة قادمة. أما الآن فيمكنك الانصراف.

- شكرا سيدي. مع السلامة.

ودع عبد السلام رئيسه واتجه خارجا وهو يحاول استرجاع دقائق هذا اللقاء وتفاصيله. لم تكن ذاكرته تخونه في أدق الأشياء. أعاد تركيب الأحداث على هيئة شريط منذ اللقاء الأول بهذا الشخص، واستحضر كلماته كلمة كلمة، ثم تحركاته، وتعابير وجهه المرافقة لما كان يلقيه من كلام. لم تكن لتغيب عنه أدنى حركة. كانت عيناه بمثابة كاميرا رقمية، وذاكرته مسجلة عالية الدقة. كان ذلك يساعده في القيام بمهامه على أحسن وجه، ويقيه السقوط في كثير من المزالق والمقالب، وهو بهذه الموهبة_التي وهبها الله له والتي نماها خلال سنوات دراسته ما كان يجعله دائما ضمن الأوائل، وكثيرا ما كان يتصدر صفوفه إلا إذا منعه مانع- يستطيع أن يقوم بأي عمل يرغب فيه، وفك أي لغز مهما انغلق. كان لا يقوم بعمل ما أو بتحرك ما إلا إذا قلبه على جميع جهاته، وتأكد له صحة اختياره. كان يتمنى أن يصبح مفتش شرطة أو أستاذا جامعيا، لكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن كما يقال. ها هو ذا يحمل شهادة عليا لم توفر له أبسط دخل يقيه العوز، ومع ذلك كان واثقا من أن الأمور ستتغير، فقط كان عامل الزمن عدوه الذي لا يقهر.

يتذكر دقائق اليوم الأول الذي تعرف فيه على القائد، كان ذلك في إحدى الليالي الشتوية، حين رأى في الطريق الرابطة بين أركمان والبرج ضوء سيارة رابضة على جانب الطريق قرب "ثاعسساست"، فدفعه الفضول إلى معرفة ما يحدث. اِقترب من السيارة بحذر، فرأى شابا منهمكا في محاولة إصلاح سيارته، حدس، من خلال حركاته، بأن الرجل غريب عن الديار، ولا معرفة له بما يمكن أن يفعل في مثل هذه الظروف. أشعل سيجارة وجلس على صخرة متكئا إلى سور مدرسة الدوار، بعيدا ينتظر نتاج عمله، ولما أيقن من فشل الشاب في تصليح السيارة ويأسه، ما دفعه إلى الاختباء من البرد القارس داخلها، تقدم نحوه، وطلب منه استضافته، لاستحالة إصلاح العطب في مثل ظلام تلك الليلة. توسم فيه الرجل خيرا، واطمأن إليه بعد ما رأى من تقطع سبل مواصلة السفر، ورافقه.

ما إن وصل القائد الجديد إلى مكتبه في صبيحة اليوم الموالي، حتى استدعى مقدم الجماعة، وطلب منه معلومات حول الشخص الذي استضافه لليلته، وساعده في الصباح على إصلاح سيارته. لم يكن ذلك من باب ارتيابه أو شكه، وإنما عمله يفرض عليه تنويع مصادر معلوماته.

أدلى مقدم "الربع" كما يسمى، بكل ما لديه من التفاصيل حول الشاب الذي وصفه له القائد، عن الأصل والفصل والنسب والأهل والأقارب، والآباء والأجداد، إلى أن طلب منه التوقف.

توثقت صداقته منذ ذلك الحين بعبد السلام، فما كان إلا أن اقترحه لشغل المنصب الذي شغر بعد انتقال مقدم الدوار إلى رحمة ربه. تطلب إقناعه بقبول المنصب جهدا، ولم تكن رغبته تلك من باب رد الجميل ، وإنما لما خبره فيه من سعة صدر وفكر وفطنة وذكاء وتنوع في الاهتمامات، وسعة اطلاع. لذلك لم يكلفه بالأمور العادية التي كان يقوم بها الشيخ، بل كان يستشيره في أمور أخرى أهم باعتباره صديقا لا مرؤوسا.

المقتبس من كتاب السمر

هذه المرة، قلت سأفعلها، ولما أصررت نسيت الفعلة نفسها. ماذا كنت سأفعل؟ هذه هي الليلة السابعة التي لم أذق فيها طعم النوم. كان الدبيب يشل حركاتي. قال صاحبي الذي أودعني الجراب، إنه علي أن أقصر عملي على ترتيب الوثائق والمخطوطات لا غير، وأعيد صياغتها، بحسب ما أراه، ورقنها على الآلة الكاتبة حتى يسهل عليه معرفة محتوياتها، فربما قادته إلى اكتشاف سر ما. هذا ما أحاوله الآن، ولا أخفي أن ذلك صادف هوى في نفسي ولذة أنستني التعب والإرهاق والإجهاد وغم فك الخطوط المتداخلة المختلفة، ورائحة الأوراق القديمة المهترئة.

تمكنت في الليلة السابعة من مقامي ذاك من اكتشاف أمر عجيب غريب؛ فالمسألة تتعلق بسيرة شخص يدعى بحسب بعض التقاييد "ابن سلالة"، وفي بعضها الآخر يشار إليه بـ"الشريف". كان ذلك بالنسبة لي، وأنا شبه متأكد من أن الأوراق لشخص واحد، فتحا مبينا، إلا أنه لم يكن بمكنتي الجزم بيقين إلا بعد تقص وبحث دقيقين، وذلك كان ديدني حين أهم بفعل، إلا أني هذا الصباح أصبت بفتور لم أعهده، وإرهاق زائد عن الحد المألوف، أعاد إلي أسئلة السنوات الماضية من عمر أمضيته في ما زهد نفعه، وانعدم إيراده، وقلت فائدته، وكان كلما راجعت مبتدأ هذا الوباء إلا وتحسرت وأصابني يأس وقنوط، فأهم بفعلها فتمنعني الأسئلة نفسها. هذه المرة قلت سأفعلها، فذهني يحتاج إلى استراحة. ستكون استراحة محارب، وعزمت.

هاتفت صديقي، واتفقت معه على أن نمضي الليلة معا، وعليه المعول في شراء لوازم السهر والسمر، ولم أفاجأ حين وافقني على الاقتراح، فقد صادف ذلك في نفسه رغبة ملحاحة، كان يعيش حالة أقرب إلى حالتي، فأسعدته فكرة استعادة جلسة من جلسات الزمن الغابر. هذا الجيل لا يمكن له أن يتغير بسهولة، ويتمرد بعد كل توبة نصوح .

أفرغنا الغرفة من كل أثاث زائد، واقتصرنا على الضروري. طلبت منه الانتباه بعد أن أنهيت فرش الرزمة الأولى من الأوراق.

- أنظر واصمت إلى أن أطلب منك التدخل.

ها أنت تعود بك الذاكرة إلى ماض بعيد؛ يوم كنتما تهيئان رسالتيكما في موضوعين يشكلان مفارقة؛ كان موضوع رسالته تحقيق مخطوط أحد شيوخ إقليم "كرت"، ولم يكن يفارقه مؤلف البادسي، رحمه الله، وكان موضوع رسالتك يتعلق بصورة المجاهد الشريف سيدي محمد أمزيان في مخيلة القبائل المطلة على سبخة "بوعرك"، كان هو ينتمي لفصيل من الحركة الإسلامية يصنف ضمن الجماعات المتشددة، وكنت أنت من نشطاء الحركة الأمازيغية؛ كان شديد الحرص على إقامة الصلوات في أوقاتها، فلا تفارق إبطه السجادة، وصيام الدهر (الإثنين والخميس) كما كان يقول. وكنت أنت علمانيا لا تفارقك "العشبة" و"القرعة" كما فهمت الأمور ووعيتها آنئذ، ومع ذلك كنتما كوجهين لعملة واحدة. تسكنان غرفة واحدة، كل واحد منكما يعرف حدوده فلا يتجاوزها، والغريب في

الأمر، أن الخصام الذي كان مستهل علاقتكما، تحول إلى ود غريب كان ينظر إليه الجميع؛ الإخوان والرفاق والمناضلون (إمغناس)، بإعجاب شديد.. ها أنتما تجتمعان مرة أخرى، ولغرض مشابه هو البحث، لكن سبلكما تفرقت واختلفت مساراتها .

انتفض عبد السلام حين سمع صوت صديقه، يناوله مكبرا ويحثه على الاقتراب.

- أنظر إلى هذه، رغم أنها تبدو لك مختلفة إلا أن الشخص الذي كتبها واحد. انظر إلى الألف، هنا، وهنا أيضا، هذه اللام. وهذه النون. أنظر. رغم أن المخطوطتين مكتوبتين بخط مختلف؛ هذا خط مغربي، وهذا خط أندلسي. انظر. إن الكاتب توفق في التمويه إذا كان يقصده، أما إذا كان يرغب في غير ذلك فهو يسعى إلى اعتراف الآخرين بقدراته ومواهبه.

- نعم أنت محق. ربما كانت هذه أيضا سابقة زمنيا، كما يظهر من هذه البقع.

- نعم. أحاول الآن ملء الفراغات، هذه رسائل وهذه سيرة.

- ربما كانت سيرته.

- أتظن أن كل هذا يعود للشخص الذي وجدت جثته على الشاطئ.

- لا أصدق أن يهتم مهاجر سري بهذه الأشياء.

- ربما. على الأقل من ناحية الحيازة. ربما كان بدوره قد وجدها، أو سقطت بيده صدفة. أو ربما وجدت بالقرب منه بالصدفة أيضا.

- لكن الغريب هو سلامتها. لو كان الرجل مهاجرا سريا هل تظنه كان سيهتم ...؟

- هناك احتمال آخر. ربما كان يريد تهريبها .

- ما الداعي إلى ذلك في ظل الظروف الراهنة، وهي لا تمس أمنا ولا تهدد مهربا أو خائنا؟

- كل الاحتمالات واردة، ونحن ما زلنا في البداية. هناك فراغ يحتاج إلى مجهودات لملئه، وأسئلة يجب أن تطرح.

- مثل ماذا؟

- أنظر إلى هذه. هناك أجزاء تالفة، وأوراق محيت محتوياتها، وربما هناك وثائق من المجموعة ضائعة أو...من يدري؟

- الذي يهمني يا صديقي في هذه اللحظات هو هوية الشخص، ربما إذا عرفنا هويته استطعنا فك بعض الغموض.

- ها نحن نختلف مرة أخرى.الذي يهمني أنا هو الحقائق العلمية لهذه الوثائق وقيمتها. أنت تخليت عن جزء منك بتقوقعك في متاهات وظيفتك التي لا هي وظيفة ولا هي بطالة.

- لا أقبل منك المس بمهنتي ووظيفتي.

- قلت لك ها نحن نعود إلى الاختلاف. لماذا تهمل الجانب الآخر؟

- ما الذي تقصد إليه؟

- أنسيت انك كنت يوما باحثا .؟

- ذاك زمن ولى بغير رجعة. فيم أفادتني أقوال العجزة والمخرفين؟

- أتعرف يا صديقي. إن ذلك ما ينقصنا لملء الفراغ الذي يواجهنا الآن.

- ماذا تقول؟

- أقول أيها الصديق. دع عنك مشاغلك الوظيفية، واهتم بالبحث، أجلها إلى حين، ليكن البحث خادمها وليس العكس.

- أنت محق. أصابني أرق فضيع بسبب هذه القضية. وأظن أنه علينا، مرة أخرى، أن نستعيد بعض جد أورثناه ذكرياتنا.

- ها أنت تعود إلى الصواب. أنا سأعمل على هذه الأوراق، وأنت ستعمل أشرطتك ومسجلتك، بالإضافة إلى حسك البوليسي، فربما اهتدينا إلى ما ينير لنا بعض السبيل.

افترقنا على أن نلتقي على رأس كل أسبوع، لعرض نتائج بحثينا. وطلبت من صديقي أن يحضر لي قليلا من عسل الجبل واللوز البلدي لأنهما ينشطان الذاكرة.

نمت ليومين متتابعين لأستعيد بعض نشاطي. وذلك ما كان. وقد ذكرني الأمر بالشيخ سيدي محمد النفزاوي، صاحب "الروض العاطر في نزهة الخاطر" الذي شكك بعض الكتاب في وجوده أصلا. فقد أفاض الحديث عن مؤثرات بعض المكسرات في تنشيط الذاكرة وتقوية الباه، وبما أني كنت أقصد إلى تنشيط الذاكرة، فقد طلبت من صديقي أن يحضر لي ما تصل إليه يداه .

فصل من سيرة الشريف الأغر سيدي ابن سلالة فقيد الخنادق وبلاد كبدانة

جاء في المخطوط الأول الذي فككت طلاسمه الآتي:

في غرة شهر شعبان الأبرك، جاءنا خبر ظهور سيدي ابن سلالة متحديا منع ممثل السلطان له من دخول تراب القبيلة، ولم يجرؤ أحد من الخدام اعتراض سبيله بسبب مكان الظهور وزمانه. ولعل ذلك كرامة من كراماته. تقدم يوم الموسم السنوي بمولاي إدريس متطوعا لذبح البقرة التي اشتراها أهل الجماعة لإقامة الموسم احتفاء بالمرابط المجاهد سيدي البشير الذي أحرز نصرا مشهودا على بعض النصارى حين حاولوا النزول بـ"العابد". كان من عاداتهم الاكتفاء بشاة أو كبش، إلا أن قدوم سيدي البشير إلى مولاي إدريس ذلك العام وإمامته الناس لصلاة جمعة ذلك اليوم في مسجده، جعلهم يكبرون فيه شهامته ونزوله عند رغبة فقهائهم وأعيانهم. كان موسما غير المواسم،

إذ قدم الصغار والكبار للتملي بطلعة هذا المجاهد الذي طبقت شهرته الآفاق، وبخاصة بعد تمرده إلى جانب إخوان له من قواد قلعية على السلطان . خصصت ساحة واسعة لخيل المجاهدين، وتطوعت فرقتي آيت عبد الله، وآيت يوسف لجلب العلف للدواب لوقوع المسجد في تراب الفرقة الأخيرة، فأبدت جارتها رغبة المساعدة ونيل شرف تكريم المجاهد، ومما زاد من مظاهر هذا الاحتفاء انتماء الشريف إلى آيت الحاج الذين كان لهم تقدير خاص في نفوس الكبدانيين بسبب تفانيهم في الدفاع عن المنطقة، وتزعمهم للحركات الجهادية ضد النصارى الذين كان سيدي البشير يثير في نفوسهم الرعب، فلا يجرؤون على الاقتراب من ساحل القبيلة، بل وحتى من سواحل القبائل المجاورة. كان نفوذه يمتد إلى رأس "أرك"، وكان قواد بني شيكر ومزوجة وبني بويفرور وبني بويافر يكنون له الاحترام والتقدير.

وبما أن ابن سلالة كان ممن شاركوا مع سيدي البشير في بعض غاراته على الحجرة، وعلى مليلة، فلم يكن بمكنة أحد من أعوان المخزن أن يتجرأ على الإساءة إليه وهو في حضرته. بل ازدادت مكانته في عيون أهل فرقته الذين بدأوا يتباهون به أمام منافسيهم من الفرق الأخرى. كانت خطبة المجاهد في وجوب

التآزر والتآخي لمواجهة الخطر المحدق ببلاد المسلمين. وكان الناس يرفعون أصواتهم بالتكبير والتهليل بعد كل جملة يتوقف عند نهايتها. وبعد الصلاة، قدمت لهم أطباق الطعام في فناء المسجد، فأكلوا وشربوا وحمدوا وشكروا ورفعوا أكفهم بالدعاء والاستغفار.

هذا ما كان من ظهور ابن سلالة في ذلك اليوم المشهود ما منع أعداءه من الإساءة إليه، وقد كانوا يتحينون فرصة للانقضاض، ومنعه من دخول تراب القبيلة. أما ما قيل عن فصله ونسبه وأصله ، فقد جاء في مخطوطة حجرية لسيدي "ميمون أينس" أحد صلحاء أركمان، وتوجد نسخة منها في "الإسكوريال"، تم تهريبها كما هربت وثائق ومخطوطات كثيرة نجهل عنها كل شيء، بحسب ما قيل، اطلعت على صورة شمسية لها أوردها أحد المستشرقين الإسبان في مؤلف لا أتذكر وسمه. جاء في المخطوطة الآتي: هو ابن سلالة بن أكطوف بن يروم بن أجليذ انطحطاح من مواليد إقليم "كرت" وهو من أقاليم فاس قريبا من مصب ملوية وجزرها من جهة الغرب، وهو من أهل كبدان البحر. أخذ عن شريفها وأكبر صلحائها المدفونين في تراب القبيلة مما يلي جهة الشرق قريبا من الموضع

المدعو "أيديم"، ويسمى هذا الشريف سيدي البطال، كما ذكر البادسي في صلحائه. حصل على إجازات من بعض شيوخ العدوة بفاس، ورحل إلى الشرق في حجتين، وثقهما في رحلة له مفقودة.

أما عن سبب تسميته بابن سلالة فيقال بأنه كان بارعا في صناعة السلال التي ورثها عن أمه بعد وفاة أبيه في إحدى غارات القشتاليين. بعد فقدان المعيل، لم تجد الأم بدا من الاشتغال لإعالة صغيرها، فاتخذت لها من صناعة السلال مصدر رزق. فشب الولد على مهنة أمه، وذهب فيها مذاهب من التفنن والتزاويق والأشكال أبهرت القريب وأدهشت البعيد، إلى أن نما رزقه، وذاع صيته، وكبرت تجارته، مما جلب عليه حسد الحاسدين وطمع الطامعين.

وكان ممن طلب وأكثر الطلب وتجاوز الحدود إلى الطمع، وقد عهد فيه الشره، وامتداد يده إلى ما في أيدي الناس يسلبها إن عن كره وغصب أم عن رضا، قائد من قواد مولانا بمحلة البرج. ولما أكثر على الرجل الذي لم ينقطع عن حمل السلال المملوء منها، إن كان الغرض من صناعته الاستعمال، والمزين

منها إن كان الغرض من صناعته التزيين والتعليق والتملي بجمال الصنعة، تباطأ عن تلبية الرغبات المتزايدة والمتكاثرة إلحاحا وابتزازا، وإن لم يبد رفضا إن تصريحا أم تلميحا. لكن محترفي القيل والقال والمجبولين على حياكة الدسائس وإتقان نسجها أوغلوا صدر القائد، وزينوا له الشرور وقالوا في الرجل وأكثروا، فما انفكوا يفتقون الفتوق في عرضه وماله ومذهبه وسيرته إلى أن صيروا أمره عنده أوهى من شبكة صياد فقير لمنع ريح، فأستصدر أمرا يبيح دمه وماله وأرضه وعرضه. ولما تقدم بعض الشيوخ يبغون التدخل بالحسنى لما عهدوه مما هو غير واقع. نزل عند رغبتهم خوفا من أن يذهبوا أبعد مما تصل إليه يده، فطلب المستفتين من رفقة السوء، فأفتوا بنفي الرجل إلى ملاح أركمان، لما تأكد لهم من حبه للخنادق ومقته لبلاد الملح ورمال أركمان، وقلة صبره على التغرب، فكان ما قدر له أن يكون.

وفي مخطوطة سنية، استطعت بأوبة من الصديق المفقود، فك خطوطها، يظهر أنها ربما كانت رسالة موجهة إلى وجيه أو رجل سلطة من أهل البرج، نقتطف منها الآتي:

"الحمد لله واهب النعم، ومفني الأمم، أحمده على ما سوغ وألهم، وأفاض وانعم، وانطق من خلقه ما شاء وأبكم، كاشف الضر والهم والغم، وأصلي على حبيبه المصطفى، وعلى آله وصحبه الفضل والكرم.

أما بعد؛ أيها السيد الذي كان قد أفاض علينا بإحسانه، وأفضنا عليه بسلالنا العامرة بكل خير عميم. إنك إن سألت عن الحال، سمعت ما لا يرضيك؛ فالذي بالأمس عرفته متنعما في وفرة "الخير والخمير"، وقلب فائضات الغلال، والغوص غيلما في أغوار السلال، متزنرا بقوة سواعد خلان ألفوا لين نول الفطير، من الأمازيغ والعرب والعجم، وجيرة الكير، بوأك الله طول عشرتهم، وعمر بك أسواق مرابعهم...

اِعلم سيدي؛ إن عذري في الإقامة بالملاح قسرا، قد هلك ستره، وفتك أمره، ذلك أن هذه البلاد عند غروب الشمس تفيض على شواطئها الغربية مياه البحر الصغير الآسنة، فتزكم الأنوف مما تلفظه بطون أهل الضفة الأخرى، وينشفل بطني وأنا أشم تلك الروائح على مدار اليوم، وأن ذلك الموضع لا يليق

بشخصي بسبب ملوحة هوائه ورطوبته [...][1]، وجعلت وكأني أمشي ولا أمشي، فأما من جهة الجزيرة، فالذي نفس ابن سلالة بيده، فلا والله ولا تالله، أقدر على مفارقة أهلها، وهم أشد الناس افتتانا ببقول البحر، ووحيش البر، وعسر الجر، ولم الهزيم، وشفط الحميم، وفي أرضهم من الخيرات ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا لسان ذاق، ولا كريم منهم في عرفهم عاق، وهذا والله ما أورثني عسر التخمام، وقصر النظر ولين شكيمة الخصام، وأقعدني مقعد حريم للقيل دكاك سكاك، وللأعراض هتاك فتاك، وما أنت من طبعي مطلع على بعضه، خبير بغوره، حفظك الله.

وأما الشريط الآخر الفاصل بين الجهة القبلية والجهة البحرية من ناحية الشمال الغربي والذي يطلق عليه الأهالي "بوقانا" تحريفا فقد صار جله مغمورا بمخلوقات غريبة، لفظتها أمواج البحر المتلاطمة، واتضح، بعد انتقالنا إلى المكان قصد المشاهدة العيانية بطلب من بعض السكان بعدما عرفوا من صلاحنا وحسن رأينا، أن المخلوقات ما هي إلا سمك البوري

[1]- نقص وحذف، حاولنا رتقه فلم نفلح.

أصاب بعض أجزائه وبخاصة الزعانف الصدرية والشرجية تحول غريب ربما نتج عن مادة تسربت إلى البحر بفعل فاعل يعرفه الأهالي ولكنهم يخشون التصريح، وذكر رجل من أصحاب الزوارق من الشريط اليابس، أن السكان بدأوا يسمعون بالليل أصواتا غريبة، يحتمل أنها تنبعث من الجرف القريب من المكان المدعو "المهندس"، وذكر الرجل صفة الصوت والرائحة ونسي الأشياء الأخرى.

وحدثنا رحالة بعد غيبة خلف الكثبان لغرض غير معلن إلى زاوية "أرك"، أن ما يحدث خلف الممر المائي الفاصل لا يمكن وصفه، وأنا مفسر لك بعض ما وعيت ليكون في علمك على قدره؛ فأول ما يكون البحر وآخر ما يكون ثم يليه من جهاته الأربع، ثم يأخذ البر، و"ثم" هذه هي التي للارتخاء، بعده في الزيادة جهة ضريح "سيدي موسى" ناحية الجبل، حتى إذا أفل القمر وطلعت الشمس، ثم يأخذ البحر في الزيادة مرة أخرى إلى متم مرسى مليلة يتمطط ويتمطط إلى ما شاء، ويعود إلى مرسى "بني انصار" مرة أخرى ويفعل مثل الفعلة الأولى، وهذا والله ما سبق لي أن رأيته أنا الذي ما فارق البحر منذ وعيت، وعملت بحارا ومساعد "الرايس" ثم "رايس"

الزورق، فـ"رايس" "الفلوكة" وأخيرا نقيب الرياس في مرسى البرج، وفي غيره من سواحل بلاد المسلمين والقشتاليين النصارى، وما رأيت بمثل ما رأيت ولا سمعت بمثله أو ما شابه، وكل شيء بتقدير العزيز العليم الحكيم. والزيادة والنقصان وما أدراك ما أدراك" [انظر الحاشية][1] .

---

[1] - كلمات كثيرة مقطعة على غير هيئتها التي حسبناها الأصل، وها نحن نثبتها كما اطلعنا عليها عيانا في التاريخ أعلاه والمكان أسفله من دون زيادة ولا نقصان تجنبا لكل ما من شأنه. وما تحصل لنا الآتي:

"باب في ذكر الزوال ومقادير الأطوال وما تطول، والأحوال وما تحول...[هذا العنوان عملنا على التصرف في مظهره وفحواه لما تضمنه من ألفاظ تخدش الحياء العام...]

فأول ما يقع الابتداء به ذكر الحدود التي من الغرب من ناحية السبخة وهي سبخة "بوعرك"، وتزعم القبائل أن الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود، ويذكرون في مدوناتهم التي وضعها لهم فقهاؤهم قصة جندي إسباني، فر بفرسه من المجاهدين لما حاصروه، ودخل إلى السبخة وفي ظنه أن مياهها غير عميقة، فأخذ يتجه إلى وسطها والناس ينادونه بالرجوع إلى أن غاص كلية في الطين، وابتلعته الأرض . ولهذه السبخة حكايات كثيرة يشيب لها الولدان ومنها في أسفارهم ؛ أنه لما حل بوحمارة بأركمان آتيا من الشرق يصحبه جنده وحريمه وخدمه ومريدوه، رأى ما رأى من التقاء البحرين وشاهد البرزخ، أعجب بالمنظر أيما إعجاب، فطلب من منجميه ضرب خط الرمل، فنصحوه بالإقامة بالمكان إلى حين حلول فصل الصيف. ولما أقبل شهر "يوليو" تبينت له أرض بيضاء

كالثلج، اَنحسرت عليها الأمواج جهة الغرب فظن الأمر صوفا ، ولم يكن قط رأى الملح البحري ولا علم بصناعته، وما ألف إلا ملح الصخور تقد من الجبل البراني، فاستشار مستشاريه، فأخبروه بالمسألة وهو لا يكف عن التعجب والسؤال، إلى أن وقر في ذهنه ما وقر، مما لا أحد يعلم به إلى القبض عليه وإيداعه القفص مما تعرفون من الأخبار المحشوة في كراريس الأوائل وأسفارهم. ومحصلة ما هو في علمنا أن هذه طريقة أهل البلد في صناعة الملح ، إذ يقوم كل واحد منهم وأسرته بحيازة قطعة أرض في ذلك المكان المنخفض حين تنحسر عنها المياه، ويحفر منها إلى البحر قناة صغيرة لتصريف الفائض وليتسرب منها الماء، ولما يأتي زمن الحر تجف تلك المياه المتبقية بعد الانحسار جهة الغرب وتكشف عن كثيب ملحي شديد البياض يأسر العين ، فيقوم صاحبه بجمع محصوله منه مما ترسب ويصففها على هيئة كثبان، يحمل منها إلى الأسواق ، وهذا من أجود أنواع الملح.

ولما رأى بوحمارة ما رآه من إقبال الناس على المكان لشراء الملح، وتجارته النافقة استشار زبانيته فأشاروا عليه ببناء السوق قرب المكان، وسماه سوق الأربعاء لأنه يكون في هذا اليوم، وبذلك ازدهرت تجارة الملح، وتحصل لبوحمارة مدخول قار بمكوسه.

أما الحدود التي من جهة الشمال، وهي الجبال التي يستوطن تلالها الغربية الجنوبية فرق من بني ستوت، ويسكن جزءها الشرقي إلى حدود الوادي فرق من قبيلة كبدانة أول مبتدئهم "إهذراوين" وقد عربت إلى "الهدارة"، ومعناها، أي اللفظة الأولى،عندهم بالأمازيغية "سكان الجبال"، وتعني الثانية المعربة "كثرة الهدر"، وأنت تلاحظ الفرق، ولا مزيد لمستزيد. ومما يعرف عن المكان أنه كان مستهل قصف البوارج الإسبانية مع بداية القرن، والله أعلم. وهذا ما خلص بعد الحذف والإضافة وما فككناه من مكتوب ظاهر ومكتوب خفي وما قدرنا محوه إلى أجلنا والسلام."

في حان الشاطئ

كان الليل قد أرخى بأستاره على أركمان، لما خرج عبد السلام من عند صديقه وقد أصابه الدوار بسبب طول النظر في الأوراق الصفراء، وانشغل يستعيد قصة هذا الرجل المدعو ابن سلالة. أراد أن يسحب من جيب معطفه علبة السجائر، فتراجع حينما تذكر بأنه قد أنهى العلبة الثانية قبل ما يقرب من نصف ساعة .

قبل أن يولج المفتاح في باب سيارة "رونو 4" المهترئة، كان قد قر قراره على التوجه إلى الشاطئ، وبالضبط إلى الحان، حيث يمكنه تسقط المستجدات من الأخبار. إنه من النوع الذي يرفض أن يأوي إلى فراشه من دون أن يعرف تفاصيل ما حدث في المنطقة، ولا تهدأ نفسه إلا بعد أن يكون قد أجال فكره في كل صغيرة وكبيرة، ولم يكن يفعل ذلك بدافع الاستخبار فقط، بقدر ما كان مجبولا على ذلك بالفطرة؛ فهو يعتبر نفسه، بوجه من الوجوه، مؤرخا لتلك الحوادث الصغيرة التي لا يهتم بها أحد، وكان يردد في قرارة نفسه بأن وراء كل كبيرة صغيرة.

اِنعطف حين لفحت وجهه نسمات البحر يسارا. لما تجاوز مركز القوات المساعدة، واقترب من الغابة المحاذية للشاطئ، أطفأ محرك السيارة وأضواءها، وطفق يتأمل ظلال المراكب الصغيرة المنتشرة شمالا. استرعى انتباهه ظلان يتمايلان يخرجان من دغل، ورنا إلى سمعه صوت ضحكات أنثوية ماجنة، أشغل محرك السيارة ودار في الاتجاه المعاكس، ركنها أمام الحان، واتجه بخطوات متثاقلة إلى ركنه المعهود، وما كاد يستقر على أحد المقاعد، حتى تقدم منه سعيد مخبره في الناحية. كان سعيد شابا نحيلا إلى درجة تجعل كل من يراه لأول مرة يظن بأنه مصاب بمرض مزمن يمنع عنه الطعام. يشع من عينيه العسليتين ذكاء وقاد. يمتهن كل الأعمال، بحسب المواسم، كما يقول؛ يشتغل حارسا ليليا لمجموعة من الفيلات في الشتاء، وبائعا متجولا في الصيف، ودليلا للغرباء من الحراكة والسياح، ووسيطا في كل شيء إلا في ما لايحفظ كرامته، وسائقا ماهرا في البر وفي البحر، ولم يكن أحد يجاريه في مهارته في التسلل من "البحر الصغير" إلى المتوسط عبر الممر الضيق الفاصل بينهما مهما اشتدت الحراسة، ولم يحدث أن سقط في أيدي دوريات الدرك أو البحرية الملكية أو القوات المساعدة، ولم يكن دخوله السجن للمرة الأولى في حياته حيث أمضى خمس سنوات، إلا بسبب اعتدائه بالسلاح الأبيض على ذلك المتغول الذي تجاوز بجبروته كل الحدود، فأهانه أمام رواد الحان في ذلك

الصيف القائض الذي يأبى مفارقة ذاكرته. كان ذلك في الثمانينيات . وهو يرفض الحديث عن هذه الحادثة لما تثيره في نفسه من أسى.

طلب عبد السلام من النادل قنينتي جعة، وأشار إلى سعيد بسرد ما لديه من المستجدات. أخرج مذكرته ، وطفق يدون بعض النقط؛ عدد الصيادين الذين خرجوا بزوارقهم إلى البحر، تحركات عناصر القوات المساعدة، الوافدون الجدد على الشاطئ، الدور التي استقبلت مجموعات المهاجرين السريين، الزوارق التي خرجت أمس إلى الضفة الأخرى والتي سقط منها في أيدي الحرس المدني أو البحرية الملكية ، الأحاديث التي تلهج بها الألسن... لم يسترع انتباهه إلا إشارة حلول مجموعة من الإسبان ، وعددهم ستة منهم امرأتان ضيوفا على أحد مستشاري المجلس الجماعي، ولم يكن مألوفا أن يأتي الإسبان في غير أيام السبت والآحاد، وهذا ما استرعى الانتباه، بالإضافة إلى أن سياراتهم مرقمة بمليلة، ولم يكن سعيد ليغفل تسجيل أرقام السيارات. وما إن بدأ في وصف إحداها حتى أسرع صديقه في قلب أوراق مذكرته ليتوقف عند إحدى الصفحات، ويقارن بينها وبين الأرقام التي سجلها سعيد. هذه السيارة سبق له أن رآها في وضعية مشبوهة بالبرج. كان الذي استرعى انتباهه آنئذ وجودها بالقرب من مقر البحرية الملكية خلف ضريح "لال جناذة". كان بداخلها رجل وامرأة يقومان بتصوير المكان ، وسبق له بعد ذلك أن

فاجأ الشخصين أيضا يقومان بمراقبة مدخل الجزيرة الشمالي في وقت متأخر من الليل. كل هذا دفع عبد السلام إلى وضع دائرة حول رقم السيارة وتدوين بعض الملاحظات الخاصة بما سبق. طلب رأي سعيد واستنتاجاته حول الموضوع وما تحصل لديه. وحين هم بالانصراف أمره باليقظة وإعطاء أهمية خاصة لضيوف المستشار، وتكثيف المراقبة على الفيلا.

في النادي العسكري بمليلة

جاء على لسان الرجل : ورغم أني كنت سجين القوقعة التي وضعني فيها شريكاي، وكنت أريدها مهنة فصارت محنة تمنيت أن أخرج منها بسلام، كنت أحسني حرا أحيانا، وأتصرف من تلقائي؛ بما كنت أختلسه من زمن في غفوة مدعاة، أقول ما أشاء وأتصرف، أخاطب من أشاء وأختلق الأحداث والشخصيات، أصنع مصائرها بحسب هواي، ألتقي بمن أشاء، وكنت أحسني سعيدا.

اتجهت. قال. صوب مدينة مليلة، بعد أن تجاوزت الحدود، هذه الحدود التي يصفها إخوان لنا بالوهمية، ونحسها نحن أبناء المنطقة بأنها ليست كذلك، بل حقيقية ، نعاني من جرائها يوميا الأمرين. أولئك الجالسون على الأرائك في العاصمة يعتبرونها موجودة بالوهم، ونحن نعتبرها موجودة بالفعل وبالقوة، نحن الذين نذل يوميا عشرات المرات. وبما أن

اليوم كان يوم سبت، اتجهت إلى النادي العسكري لألتقي بصديقي العقيد "Antonio Varrano de Molina". ولعلكم ستستغربون وجود أشخاص، في هذه المدينة المحتلة من الإسبان أو يحملون الجنسية الإسبانية، أكثر مغربية من العديد من المغاربة ممن يحملون الجنسيات المزدوجة وقلوبهم على زناد الوطن الذي يلبي مصالحهم أكثر. إنه وجه آخر من النفاق.

كان "انطونيو" يحب مليلة إلى درجة الجنون، ويصر على نطق اسمها بحسب الأصل "ملِيلـْتْ" بسكون الميم والتاء، كما تنطق في بلاد الخنادق، وكان أطلعني على مجموعة من الوثائق والمخطوطات تعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي، منها ما يعود لبعض أسلافه، وكان يصر على كونه مليلي الأصل، لأن أحد أجداده ، رفض مغادرة المدينة أثناء الهجوم القشتالي عليها، وبقي فيها إلى أن تمكن الأعداء من أسره، فاخذ للعمل حمالا في بعض السفن الحربية الإسبانية، إلى أن منح الجنسية الإسبانية بعد رضا رؤسائه عليه، وهكذا استطاع التخلص من الأسر وتكوين أسرة بعد زواجه من موريسكية، واستقر بصفة نهائية في الحي القديم القريب من القصبة. كان "انطونيو" يأمل دائما في رجوع المليليين الذين غادروا المدينة إلى أركمان ثم منها إلى البرج حيث

استقروا نهائيا. كان يكثر من التنقل إلى البرج قصد الاتصال ببعض من يرى أنهم أهل للثقة أو يملكون وثائق تعود لهذه الفترة من تاريخ مليلة، وأحيانا كان يصر على أنه يحيي صلة الرحم مع أهله. دفعه كل ذلك إلى الاهتمام بتاريخ المنطقة كلها، فجمع كل ما كتب عن مليلة ونواحيها منذ العصور القديمة، إلا أنه مؤخرا بدأ يحس بأن هناك تحركات مشبوهة حياله من لدن الطرفين : المغربي والإسباني، تترصد تنقلاته، بل إنه استدعي من قبل المخابرات الإسبانية إلى مدريد، فتم استنطاقه ليومين متتابعين، دون أن يتمكن المحققون من الوصول إلى شيء، بل إن أجوبته على أسئلتهم لم تكن تخرج عن كونه يهتم بالتاريخ والمجتمع المحليين في إطار استشراق جديد يسعى للحفاظ على موقع إسبانيا المتقدم في الناحية ، ويرغب في نشر ما يراه يستحق ذلك كما فعل غيره من جنود وصحفيين ورجال دين في أزمنة سابقة. أما تردده على البرج فلا يتجاوز ممارسة هواية الصيد المفضلة عنده. وأخبرني بأن الأمر بلغ إلى تهديده بالتصفية الجسدية على يد منظمة سرية تطلق على نفسها "فرسان إسبانيا الجدد"، وينضوي تحتها أشخاص من شتى المشارب، منهم الجنود والمثقفون والساسة، وهي منظمة تسعى إلى الوقوف في

وجه كل من يحاول العمل على الاعتراف بمغربية مدينتي سبتة ومليلة والجزر، أو يبدي أي تنازل.

ما إن دخل النادي رجلان بلباس مدني ومسحاه بنظراتهما المريبة، حتى توقف "انطونيو" عن الكلام، ولكزني بقدمه، فهمت رسالته، تظاهرت بالسكر ، وبدأت أردد وهو يشجعني على الإعادة:

– Ramon rampe la ramma"

– Repete "

كنت أردد المقطع كمن يحاول التخلص من التأثير الفرنسي في نطق بعض الحروف الإسبانية. كانت هذه العبارة أول ما تعلمناه بالإسبانية في السنة الأولى من التعليم الثانوي، بل أمضى أستاذنا الجبلي بثانوية القاضي عياض بتطوان، عدة حصص وهو يمرننا على نطق حرف "الراء" بدل "الغين".

بعد عدة محاولات تظاهر "انطونيو" باليأس، وطفق يحاول التواصل معي بالإشارة ليستفسر عن المشكلة. أفهمته بطريقتي بأن الحرس المدني أخذوا مني سلة البيض التي

أحضرتها له. فافهمني بدوره أن الأمر لا يستحق الاهتمام، وسيدفع ثمن البيض على شرط ألا أعود مرة أخرى إلى خداعه بهذه الطريقة، بل علي ابتداع طرق أخرى إن أردت استغفاله. أدرك بحاسته العسكرية أن الأمر أصبح يشكل نوعا من الخطورة، فإما أن يواصل ويستعد لكل الاحتمالات أو يتراجع إلى حين، أو ينسحب بصفة نهائية. إن كل المؤشرات تدل على أنه مراقب، وهو يعي تماما ما تعنيه هذه الأمور، فمن السهل أن تلفق له تهمة الخيانة أو التجسس، بل يمكن تصفيته بكل سهولة إذا استدعت المصلحة العليا ذلك. أخرج حافظة نقوده ومدني بورقة نقدية . شكرته وصرخت في وجهه علني أخفف عنه بعض الكدر الذي علا محياه:

- في المرة القادمة يا سيدي سأحضر لك سلة بيض كبيرة وأرنب ضخم.

أشار علي بالانصراف متأففا وكأنه يريد التخلص من وجودي، قمت متمايلا، وخرجت والشخصان يتابعان حركاتي وكأنهما يتأكدان من كوني "مورو" لعبت برأسه الخمرة .

اتجهت إلى الميناء. قصدت حانة (Alicante) ، طلبت قهوة سوداء، وبدأت أدخن وأنا أسترجع الأحداث وأعمل فيها بفكري. استرجعت ذكرى والدي رحمه الله الذي قدم من الخنادق على دراجته قاطعا أكثر من ثلاثين كيلومتر لملاقاة عمي حين عاد للمرة الأولى من ديار المهجر. تذكرت أيضا أولئك المهربين الذين كانوا يأتون من الناظور والنواحي لتهريب البنزين والسجائر والتفاح والموز، في السبعينيات، على متن دراجاتهم. كنا ندرس بثانوية الكندي، وكانت حدود مدينة الناظور تنتهي عند شارع يوسف بن تاشفين. لمحت في غرة تلك الذكريات أحد زملاء الطفولة وهو يرتب السلع في سيارته لينطلق إلى "بني انصار"، فطلبت منه مرافقته حيث تركت سيارتي.

مطاردة

حين بلغ عبد السلام أركمان، كان الليل قد انتصف أو تجاوز النصف بقليل، قصد الحارس الليلي الذي كان قد أشعل كومة من الأخشاب يستدفئ بقربها، وحين لمحه عرف بمراده. أخذ يبحث في كيس بلاستيكي عن بغيته، وما إن وصل حتى أمده بعلبة سجائره المفضلة "إنها الوحيدة المتبقية. عليك أن تبحث لك عن نوع آخر. أُنظر لم يعد أحد يدخن "كازا". الناس تتقدم وأنت تتخلف." أمضى معه بعض الوقت يتجاذبان أطراف الحديث حول بعض الأحداث اليومية، إلى أن أحس بالنوم يغالب أجفانه. ودعه، وتوجه إلى الطريق الرابطة بين أركمان والبرج.

"كنا عشرين فارسا كلفنا القائد بمسح المنطقة بعد اختفاء مزودونا بالقرطاس، الذي كان يشتريه من الجنود الإسبان المرابطين بالجزيرة ، انطلقنا فجرا من سوق الجمعة، كان علينا السير حذاء الجبل بعيدا عن أعين الإسبان الذين يراقبون الساحل من الحجرة ومخبريهم وجواسيسهم من الأهالي. نمشي

بصمت متجنبين إثارة كلاب الدواوير التي نمر بها. صادفنا بالقرب من زاوية "بوعنقوذ" الميلود الرقاص وهو يحمل رسالة من الشريف سيدي محمد أمزيان إلى قائدنا. أخبرنا الميلود بأن قطاع طرق اعترضوا سبيل بعض التجار من "الهدارة" وسلبوهم أموالهم ودوابهم، ولم يكن لديه الوقت لنجدتهم خوفا على مهمته لأنه يحمل أخبارا عاجلة إلى أهل البرج. أسرعنا الخطى نريد اللحاق بالتجار، فربما استطعنا نجدتهم. لكن لما بلغنا الملاح، وجدنا خمسة رجال قد ذبحوا من الوريد إلى الوريد، ولا أثر للدواب. عرفنا أن هؤلاء القطاع ربما ساهموا في قطع الإمدادات عن المجاهدين، فقررنا بعد التشاور القضاء عليهم، من دون أن يثير ذلك أنظار أعدائنا، تفرقنا في كل الاتجاهات على شكل مجموعات. لم يمض وقت طويل حتى سمعنا صفيرا متقطعا عرفنا صاحبه إنه القائد عمرو. كنا نعرف بعضنا البعض من خلال صفير كل واحد منا. أسرعت جميع المجموعات في اتجاه مصدر الصفير.

كان عمرو ومرافقاه يحاصرون مجموعة من سبعة رجال في ساحة مكشوفة، ويهددونهم ببنادقهم. استسلم الرجال لأنهم يعرفون جيدا ما يمكن أن يقدم عليه المجاهدون الذين كانوا

يفتكون بكل من سولت له نفسه معارضتهم. لما بلغنا المكان، أصدر القائد أمره بتقييدهم بحبال وربطهم إلى الدواب، وكلف عمرو ومجموعته بالسير بهم إلى البرج، وحبسهم إلى حين تبين الأمور، وواصلنا نحن المسير نمسح المنطقة".

كان عبد السلام يعتز كثيرا وهو يسترجع مثل هذه الأحداث التي رويت له عن جده الذي كان هو القائد عمرو نفسه. كان يصاب بالدوار وهو يقارن بين زمن أولئك وزمن هؤلاء. كان يؤلمه أن يرى أحفاد أولئك الرجال وهم يلوكون أيامهم في انتظار مهرب يشتغلون تحت إمرته حمالين لساعات، أو يراهم وهم يعودون من حقول الأندلس يرفلون في الخيبة وقد ازدادت أجسامهم نحولا، وأزمنت فيها العاهات، كما حدث لآبائهم الذين شاركوا في الحرب إلى جانب "فرانكو"، ومع ذلك لم يستسلموا، فما إن بلغهم خبر رسو باخرة "دينا" على شاطئهم حتى هبوا رجالا ونساء لحمل السلاح وإيصاله إلى إخوانهم في "تيزي وسلي" و"بورد" والجزائر، وأخفوا ما ثقل عنهم منه في بساتينهم ودورهم إلى حين. هل حقا يعيد التاريخ نفسه؟

قبل أن يعيد تشغيل محرك سيارته لمح رجلين خارجين من عتمة درب يتجهان صوبه، فحدس بعدما لاحظ أنهما غريبان عن المنطقة بأنهما يريدان به شرا، أسرع بتشغيل محرك السيارة وانطلق مخلفا وراءه زوبعة من الغبار، حين ابتعد قليلا ربت على مقودها شاكرا إياها على سرعة استجابتها لهمزه، لكن قبل أن يصل إلى مفترق طرق؛ الشاطئ والبرج، شاهد عبر المرآة سيارة تسرع في أثره، فعرف أنه مطارد. كان متيقنا أن المطاردين سيتمكنون منه قبل أن يصل إلى أقرب نقطة يمكنه فيها أن يحس بالأمان.

أخرج هاتفه بسرعة، دون أن يخفف من ضغط قدمه على دواسة السرعة، ركب رقما، وهاتف صديقه البكاي ليطلب منه المساعدة. تظاهر بعدم الانتباه للسيارة المطاردة، وانعرج في طريق متربة تغطيها ظلال أشجار التين والزيتون والقصب. لما تبينت له مجموعة من الأشباح تتحرك بين الأشجار، ركن السيارة على جانب الطريق، أطفأ محركها، ونزل مسرعا ليختبئ خلف جذع زيتونة. تحسس الأرض إلى أن وقعت يداه على كومة أحجار، أخذ منها حجرين واستعد للطوارئ. كيف تمكن البكاي من جمع كل هؤلاء الرجال؟ لابد أنهم كانوا ساهرين

بالكوخ. أطلق صفيرا معلوما، فجاءه الرد. اطمأن إلى أن لا أحد يستطيع أن يمسه بسوء وهو بين هؤلاء ولو أدى بهم الأمر إلى إشعال حرب. اقتربت السيارة المطاردة إلى أن لاح لها شبح "رونو 4" ، فأبطأت من سرعتها إلى أن توقفت تماما. وقبل أن يتمكن الرجلان من تدارك الموقف، انهال عليهم وابل من الأحجار من جميع الجهات مهشما زجاج السيارة من نوع "رونو 18"، فما كان منهما إلا أن انطلقا هاربين حتى غابا في العتمة.
نادى عبد السلام صديقة، فخرج الرجال من بين الأشجار، وهم يقهقهون ويتضاحكون.

عملية "أنو أويندوز" أو "بئر العجل"

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحا بقليل حين انسل عبد السلام من فراشه محاولا ألا يحدث أي ضجيج يجعل زوجته تنتبه لخروجه، وعلى ضوء هاتفه حمل قميصه وسرواله، ثم خرج إلى الفناء الواسع. ارتدى ملابسه قبل أن يصل الباب الخارجي. الجو حار، والسماء ملبدة بالغيوم. بحث عن علبة السجائر في جيب سرواله، أخرج من بين تلافيفها لفافة، أشعل مؤخرتها بولاعته، وبدأ يمج طرفها بالتذاذ. لم تكد النار تأتي على نصفها حتى كانت عيناه اللامعتان كعيني قط قد ألفتا الظلمة.

دعس عقب السيجارة بقدمه، وانطلق نازلا نحو الشاطئ محاولا تجنب الأماكن البارزة. كانت أضواء الحجرة تسطع وتتلألأ لتنعكس على صفحة الماء، كأنها عقد لؤلؤ يزين جيد حسناء، وفي الأفق الشمالي أضواء متفرقة لزوارق الصيادين. انتعشت ذاكرته تسترجع ما قرأه وسمعه عن هذه الحجرة المغتصبة التي تنتظم على هيئة أثافي مصطفة، أطلق عليها

الإسبان (من الغرب إلى الشرق): جزيرة "كونكرسو"، وجزيرة "إيزابيل الثانية"، وجزيرة الملك. تذكره هذه الأثافي بأيامها المجيدة، حين كان المجاهدون ينطلقون منها لمهاجمة سفن النصارى، ما جعل هؤلاء يطلقون عليها "جزر الشفارين". كانت قبل أن تتحول إلى معقل المجاهدين مرعى لعنزات الأهالي، وموطن السلاحف شتاء، ثم أقام بها الأتراك بعد ضمهم الجزائر، وسبق الإسبان الفرنسيين في احتلالها بفترة قصيرة. جرح سيظل ينزف إلى ما شاء الله.

توقف يستجمع أنفاسه. نظر جهة البرج، تأمل المسافة الفاصلة بينه وبين الجزر، وألقى نظرة نحو الغرب، حيث أضواء شاطئ أركمان، يقابلها حزام ضوئي يمتد على شكل هلال من القرية إلى بني أنصار، ليتقوس جهة رأس "أرك" غربا، ويتجمع في نقطة لامعة البياض. إنها مليلة، الجرح يكبر كلما اتجهنا غربا، هذا الهلال يوحد حرقته، ينغرز سكينا يقطع الأحشاء. كم من أقوام مروا من هنا! كم من قطرة دم سالت على هذا الساحل؛ أروت رماله وأحيت حقوله! انهالت على ذاكرته أحداث ووقائع كان فيها موقف سلطان فاس مخزيا. رأى فلول جيوش المخزن تقطع أراضي كبدانة وقلعية، فتاتي على الأخضر

واليابس، ولما تصطدم بجنود "بوحمارة" تفر إلى الجزيرة، ومنها تبدأ تنظيم حملات لا لمحاربة الأجنبي، أو لمقاتلة القائم على السلطان، بل لتغتصب وتنهب وتعيث في قرى القبيليتن ومداشرهما قتلا وفسادا. ثم تراءت له حملات السلطان على القبائل لمنعها من مناوشة المحتل، ورأى جماعة من الأبطال تتمرد على السلطة المركزية بسبب مهادنتها ومواقفها ، فتبين له القائد هرفوف خادم السلطان بالبرج يجر أغلاله ذليلا مهينا لأنه منع الفرنسيين من النزول بالساحل. رأى كل ذلك وتدبره، فازداد جرحه عمقا ونزفا.

كان ذلك كله كافيا ليجعل عبد السلام يتساءل حول المظاهر والمهرجانات التي تقام باسم الوطن والوطنية. أدفع كل أولئك الرجال أرواحهم فداء ليصير الأمر إلى ما صار إليه؟

لم تكن كل تلك الهواجس لتمنعه من الإحساس بالمسؤولية التي يجب أن يتحملها كل فرد من أفراد هذا الوطن الذي قد على مقاس حفنة من المتزلفين، لا يروعهم الركون إلى الظل في النائبات، وحين تسلم على ظهور غيرهم، يغنمون. يحز

في نفسه حين يقارن بين وطنية ووطنية؛ بين وطنية هؤلاء، ووطنية أولئك .

لم يكن دافعه إلى العمل ليل نهار واجبه الوظيفي، كما يمكن أن يفهم البعض من قصار العقول، هذا الواجب الذي يتقاضى عنه ما لا يسد حتى مسغبة الأسبوع الأول من كل شهر. إنها روح الأجداد تبث عبيرها في روحه، وتدفعه إلى المدافعة بالغالي والنفيس. كان يفكر في كل ذلك ورجلاه تحملانه رغما عنه إلى الشاطئ الصخري، ولم يقطع حبل تفكيره إلا وقع أصوات وأقدام أسفل الوادي مختلطة بأصوات الأمواج. أطل من أعلى الجرف، فإذا بسيارتين تربضان في ركن مظلم بعيدا عن الشاطئ، وبأشباح تتحرك ذهابا وإيابا منهما وإليهما. أخرج منظارا صغيرا كان لا يفارقه، وبخاصة حين يجد نفسه وحيدا في بعض الأماسي، فيجلس على صخرة على جرف "الصقر" يتأمل تلك الأثافي ويستقرئ صمتها الضاج بآلام الاغتصاب وصرخات الاستنجاد والاستغاثة، تلك الأثافي التي هي جرحه النازف في صحوته وغفوته. نظر في اتجاه السيارتين، فتبينت له أولاها وهي السيارة الرباعية الدفع التي شاهدها في مواقع مختلفة في فترات سابقة. رأى مجموعة من المغاربة يحملون

الصناديق من السيارة الأخرى إلى زورق من نوع "زودياك" قريب من الشاطئ. نظر أعلى الجرف فظهر له عنصر من القوات المساعدة يقوم بالحراسة متأبطا رشاشه، وهو يذرع ساحة المركز ذهابا وإيابا. كان عليه أن يتحرك بسرعة قبل فوات الأوان، ولا وقت لديه لطرح الأسئلة، ثم إن أي عمل فردي سيكون تهورا، وقد يجر عليه ما لا يحمد عقباه، وربما أودى بحياته. فإما أن رجال القوات المساعدة متواطئون مع هؤلاء، وإما أن المكلف بحراسة المنطقة قد...استبعد فرضية القتل. تذكر أن دوريات رجال القوات المساعدة غالبا ما تتكون من عنصرين. وإذا كانت السيارات يمكن إخفاؤها في مثل هذه الأماكن المظلمة بين وهاد الوادي، فإن الأضواء وتحركات الأفراد يمكن ملاحظتها بسهولة، ثم كيف لم يلحظ أحد من الحرس ذلك الزورق الرابض هناك؟! لاحظ أن الأفراد يلتزمون في تنقلاتهم ظلال الجرف. أخرج هاتفه، أبرق برسالة مختصرة إلى رئيسه في البرج، وطلب منه الاتصال برئيس سرية الدرك. قرر التحرك، على الأقل، لتأخير إتمام عملية التهريب الجارية أمام عينيه، فهو يعرف المكان شبرا شبرا . اتجه نحو ممر ضيق يشرف على الوادي من جهة الغرب، وقبل أن يستوي واقفا أحس بشيء يتحرك

خلفه، وبحركة خاطفة اِرتمى على جنبه الأيمن متجنبا الاصطدام بحجرة كبيرة كانت موجهة إلى قفاه، ودفعته حاسته السادسة إلى الجري في اتجاه الجرف بعدما تبين له أحد رجال العصابة يحمل سيفا طويلا يلمع على ضوء القمر موجها نصله إلى بطنه. تسارعت في ذهنه الأفكار. استبعد أن يكون الرجل من أهل المنطقة، فلا يمكن تصور أحد من معارفه يقبل على اغتياله، وهذا سيسهل عليه الانفلات منه وخداعه. أسرع في النزول عبر الممر والمطارد يلهث خلفه، ولما أحس به قريبا، انعرج بخفة، وهو موقن من أن الشخص منشغل بمواقع قدميه أكثر من انشغاله بأي شيء آخر في هذه اللحظات، بسبب وعورة المسلك وشدة انحداره، انعرج خلف كثيب مرتفع عن الأرض، وقبل أن يعي الرجل الموقف، عالجه عبد السلام بقدمه اليسرى على بطنه، ولم يدر كيف لمعت في ذهنه ذكرياته مع هذه القدم حين كان لاعبا مع الفريق المحلي وقد كان مهاب الجانب في المباريات التي كانت تقام في الصيف بالبرج وأركمان. اِنكفأ الرجل فاقدا توازنه متدحرجا نحو الأسفل، وندت عنه صرخة متقطعة عبثت بصمت الوادي، وارتدت في وهاده صدى باغت إيقاع الجماعة وأنغام الأمواج المداعبة لصخور الشاطئ.

انطفأت الأضواء فجأة، وبدأ اللغط والخصام والصراخ باللغتين الدارجة المغربية والإسبانية، وبدأ كل فرد من أفراد العصابة يبحث له عن مفر، فتفرقوا في الوادي وعلى المنحدرات. كل ذلك دفع برجال القوات المساعدة في المركز إلى التحرك. اتجهت أنظار عبد السلام إلى السيارة الرباعية الدفع التي هدر محركها فجأة ، فانطلقت مزمجرة محدثة صريرا يصم الآذان بسبب احتكاك عجلاتها الضخمة بالحصى والأحجار. أسرع صاعدا الممر عله يعترض طريقها أو على الأقل يؤخر قليلا هربها بسد المنفذ الوحيد أمامها. كان يجري على أربع كثعلب تطارده كلاب شرسة، وقبل أن يصل إلى المكان المقصود، كانت السيارة تنهب الممر الترابي نحو الدوار مخلفة سحابة كثيفة من الغبار والدخان. نظر أسفل فرأى مجموعة من عناصر قوات الحرس تحاصر بعض أفراد العصابة وتسوقها إلى مكان مكشوف. أخرج هاتفه واتصل برئيسه. أخبره هذا الأخير أنهم قريبون من المنطقة وهم يقيمون حاجزا أمنيا على مشارف الطريق المعبدة، وأن هناك سيرة رباعية الدفع يطاردها رجال الدرك.

ما إن هلت أولى تباشير الصباح، حتى كانت المنطقة تعج برجال السلطة من أجهزة مختلفة وبالمواطنين. أسفرت العملية عن توقيف أحد عشر رجلا وامرأة منهم ثلاثة إسبان وجزائريين والباقي مغاربة، وحجز ثلاث بنادق صيد من نوع "الخماسية" ومسدس أوتوماتيكي، وعشرة أطنان من مخدر الشيرا، وخمسة عشر كيلوغراما من المخدرات القوية القادمة من أمريكا الجنوبية عبر الصحراء، وصندوقين من الوثائق والمخطوطات تعود لفترات تاريخية مختلفة تجهل أهميتها ومضامينها، وسيارتين وشاحنة. تم شحن المحجوزات في شاحنة تابعة للقوات المساعدة، في حين أركب الموقوفون بعد تكبيلهم بالأغلال مثنى مثنى في سيارة كبيرة تابعة للدرك الملكي. تأمل عبد السلام الموكب وهو يشق الغبار في اتجاه الطريق المعبدة وعيناه لا تفارقان الرجل الإسباني الضخم الذي كان يراقبه بدوره طيلة تواجده في المكان، من خلال زجاج نافذة السيارة، كانت عيناه تقدحان حقدا وشررا ووعيدا، تسرب لهيبه إلى دواخله فجعله يحيد بنظره تجاه الصخرة وذهنه لا يكف عن استعادة تفاصيل الأحداث. أخرج علبة سجائره، سل منها واحدة، قدح عجلة ولاعته المسننة، وغاب يتأمل شرر لهيبها يعانق مؤخرة السيجارة

إلى أن امتد إلى شاربه الكث فأتى على جزء منه، فانتفض هلعا.
طرد عنه الوساوس، اتجه إلى الجرف، مسح سطح صخرة ملساء، وجلس ينظر جهة الجزر الثلاث الرابضة هناك كالغريبات، وهن يكشفن فتنتهن ليوم آخر لا يحمل من الجديد إلا ضوءه الشفيف، يتسرب من جهة الشرق يرفل في وعد خبئ بيوم آخر ينسج حرقتهن ويمج النزيف.

في اليوم التالي للحادث، عرف عبد السلام عن طريق بعض معارفه القاطنين بمليلة باختفاء صديقه "انطونيو"، فأيقن أن الحرب مستمرة، وكأن التاريخ يعيد نفسه؛ فالكر والفر قائمان أبد الدهر بين الضفتين ما دام هناك من لا يعترف بحق الآخر في الوجود والتحرر، ولم يكن طارق أول من افتتح سفرها، بل سبقه إلى ذلك جنود روما، و"حنبعل" والوندال، وغيرهم، ولا يمكن لأحد أن يتنبأ بنهاية ما لهذا الصراع الأبدي.

عود إلى مستهل المحنة

"وفـــــــي

زحمة غبش ما هو واقع فيه،

وثنايا الالتماعات الهاربة التي كانت تفر

منه وهو يطاردها فلا يمسك منها بغير الهباء، وغب

شريط تندغم على حوافه الأزمنة والأمكنة والوجوه، تبين له

شبح رجل يدب في صقع غير واضح المعالم، يراه ولا يراه، يحاول

تبين ملامحه فلا يفلح، يمشي الرجل مقوس الظهر محدودبه، يزيد من

تقوسه كيس يطل أعلاه مربوطا خلف قفاه بحبل مصنوع من الدوم، ينتعل نعـــالا من الحلفاء. كان الرجل، وهو يمشي، وحيدا في ذلك الصقع الأجرد، وعلى هيئته التي هوعليها، كالسهم رمى به رام غير مدرب، يشق الفضاء بلا مبالاة نحو هدف غير مرئي، هدف غير محدد، أو كأن صاحبه رمى به عبثا ومن غير قصد؛ فمن يكون هذا الرجل؟ وماذا وأين يصمت؟"

لا أتذكر آخر يوم رأيت فيه صديقي عبد السلام الذي أورثني هذا الخبل. لا أحد يعرف ماذا وقع بالضبط، ولا حتى بالتخمين والظن. الذي أنا متأكد منه أنني صرت بدوري مراقبا. أنا الذي لم يسبق أن آذى ولو بعوضة. كنت أقرأ المخطوطات، أتسرب إلى مكتوبها فيصير مني وأصير منه، أتحول إلى شخوصها وأتحدث بأحداثها . كان في زيارته الأخيرة يعاني من خوف فضيع مرضي. أخبرني أنه لم يعد يقوى على النوم. صار يظن الظنون في كل من حوله، وفي الليل تتراءى له الأشباح تطارده. حاولت معرفة سبب هذا الخوف فلم أفلح. كان يقول بأن الخونة الذين قتلوا السي عباس وفتكوا برجال المقاومة يطاردونه ليل نهار. حكى لي كيف نجا من موت وشيك في آخر زيارة له لمليلة. وفي معبر بني أنصار اقتاده رجلان بالزي المدني إلى مكان مجهول بعد أن وضعوا عصابة على عينيه وأشبعوه ضربا وتعذيبا، وهددوه بالقتل إن لم "يدخل جواه". صديقه القائد تنكر له، وصار يغلق الهاتف في وجهه. كانت الأسئلة ملحاحة لا تكف تدق في مخيلته كمطرقة كبيرة عن سبب هذا التغير، وعن الجرم الذي اقترفه.

لم يمض وقت طويل حتى اختفى الصديق، فما دريت أي مسلك سلك أو أسلك، ولكن وعيت من اختفائه هذا أشياء كثيرة. عام بالتمام والكمال وأنا أقمش في هذه الأوراق، كان هذا عزائي

الوحيد. أستطلع الأخبار ولا جديد، كل من أسأله أو أستفسره يركن إلى الصمت. ما صرت إلى ما صرت إليه إلا بسبب الحسرة وهذا النزيف هناك. في سري الدفين قررت أن أعمل ما بوسعي لكشف ما غمض من قصة صديقي. هذه الوثائق التي أكنزها كنزي الوحيد وسبيلي إلى الكشف والاكتشاف والتلميح والتصريح. ليصيرني هؤلاء الذين يتلاعبون بخلق الله ما شاؤوا؛ ضفدعا أو خنفسا أو حتى جيش خنافس. الجرح النازف في أضلعي يمنعني من الانكفاء، وتجربة صديقي علمتني كيف أقاوم، أنا وجهه الثاني، أموت ليحيى وأحيى ليموت. هذه الحجرات الثلاث الغريبات أملي في الوجود، وسأبقى قائما ما قامت، هي بلسمي ومنبع الحياة في، وصمام أمان من الجنون المطلق الذي يعمل دؤوبا لتكليس خاطري.

سأضرب الآن أيها السادة، سأضرب عن الكتابة والسرد، ضدا على "من" و"رئيس من" وضد كل تجار الكلام. إن اختفيت فسيأتي بعدي من سيواصل، ما دامت تلك الصخور هناك شاهدة شامخة تمد اليد مستغيثة، وإن سلمت - سلمتم بعون الله وحفظه- عدت إلى سالف حكيي وسردي، فأنا المغيث..أنا المغيث..أنا المغيث...حفظكم الله، وما هذه إلا بداية؛ بداية فك أسر غريبات الزعفران بأضعف الإيمان.

قــفـــل

"وأنت تستزيلها، وتقول وتُسْدِر برأيك، وتزعف بقولك، وتخوش في ما لا ينفعك أو يضرك، موقن بتغيرالحال، تخوص لها المدح وتدئب لها الذم حتى يدْهَمَّ قلبك الرخراخ، فتطلق عنان مِزبرك يصق النفثات، ويرغي الزبد الأسود،فيزهر سحبا دكناء تخالها نسوة ردَّاحات يتزبعن في خاطرك

كشجر الزيزفون يزهر ولا يثمر، ويتقبض الخاطر،

ويضيق القلب ليصرف ضيقه زجْلات زعازع

تزيط في الطرقات، وتذأب في

البراري والأودية،

فتجعل الناس

يسحلون

بالنميمة، ويخوشون

بالغيبة ليفصلوا بين الجلد

والعظم ويقولون: ها الرجل كان رجلا

اختاص أمره وتسكر راشومه. وما الراشوم ؟ ومن أين للناس

بخبر النفس تستقوي بالحبات منها الزرقاء ومنها السوداء؟ وما النفس إن

لم تكن نفسين؟ وما المرء إن لم يكن بالتي ينقاد لها، ويسلم لها العنان؛ فإن

اللــوامة اتبـع، فلا مـراد لـقـضاء الله، وإن الـمـطـمـئـنـة اختار،

فطوبى للذي تربت يـداه"

المحتويات